البقعة المباركة:
أَخْلاط[٨]

تنحدر أصول الأستاذ فتح الله كولن من مدينة أخلاط، ولا بدّ لإدراك كنه هذه السلالة من إدراك الدور المحوريّ لمدينة "أخلاط" في التاريخ الإسلامي أوَّلًا، فهي بوّابة الإسلام إلى الأناضول، وأوّل بقعة مباركة في الأناضول يُرفع فيها الأذان ويُذكَر فيها اسم الله ﷻ ورسوله ﷺ.

وبسقت من فسائل الإسلام في هذه المدينة أشجار سامقة، انشعبت أغصانها حتى أظلَّت الأناضول، ثم فاح عبيرها في العالم كلّه بريادة العثمانيين، فأخلاط هذه هي مهد الإسلام في بلاد الأناضول، وقد كان مِن فسائلها ما كان في نشر عبيره.

وإذا كانت أقدم شواهد قبور الأناضول الآن في أخلاط، فهذا يُجلِّي لنا المكانة التي اضطلعت بها تلك المدينة منذ قرون عدّة؛ فقد نشر أبناؤها الإسلام في مناطق هجرتهم التي أرغمتهم عليها الكثافة السكانيّة فيها، فعلى أيدي هؤلاء المهاجرين انتشر الإسلام في بلاد الأناضول والبلقان، ومن "أخلاط" كانت الهجرة المباركة، وأشرق التاريخ التركيّ الإسلاميّ، وغدت جسرًا عبَر منه الإسلام إلى قلب الأناضول ثم إلى الغرب... فأخلاط في قِيَمِها ظرفٌ لأزمنةٍ انصهرت في ماضٍ عريق، بوسعنا

(٨) هي مركز تابع لمحافظة "بِتْلِيس" في منطقة شرق الأناضول، وهي تقع على الساحل الشمال الغربي من "بحيرة وان" بتركيا. (المترجم)

obeikandl.com

أن نتذكَّـر الحيـاة فيها أمَّا أن نحاكيها فهيهات، عينها سـاهرة على ماضيها تبيت تحرسه كما تصون شرفها، عذراء لم تمسَّها الحداثة بسوء ولو بنظرة، ولـم تقـدر أن تحوِّل ماضيها إلـى "حاضر"، فأخلاط سـاحرةٌ خلَّابة دائمًا بحالها هذا وموقعها ذاك.

حقًّـا إنّ الجنـود هم الذين فتحوا إسـطنبول بعُدّتهـم وعتادهم بقيادة محمـد الفاتـح، إلا أنَّ "أخـلاط" هـي التـي نفخـت الروح في إسـطنبول لتجعل منها مدينةً عثمانيَّة، فـ"أخلاط" بالأحرى هي التي أنقذت إسطنبول مـن نِيْـر الغزو الثقافي للبيزنطيين، وهيّأت الأجواء لدخولها في الإسـلام؛ وهـي أحـقّ من بُورْصـة بلقـب "المدينة الروحيّـة"، نعـم كان لبورصة يد في الدولة العثمانية، إلا أنّ "أخلاط" كانت لها اليد الطولى في نشر الإسلام في الأناضول، ومنه إلى المناطق الأخرى، فلطالما عُنيَت "أخلاط" بفسائلها التـي غُرِسـت فيهـا، وأهـدت أغصانها بأريجهـا الفوَّاح بالهدى والسـلام إلى أنحاء العالم كافّة.

ومـن أغصـان تلك الفسـائل ذريّة "خليل أَغا"، هاجـرت فيمن هاجر وعبَـق الهـدى يرشـح منها... رحـل خليل أغـا وذريّته وفـي جَعبتهم كلّ مـا كان فـي أخلاط من ثـراء روحي وتاريخيّ؛ رحلـت العائلة من أخلاط لظروفٍ خاصَّة، وكانت تحمل معها بذرة مباركة من بقعة مباركة، ثم ولَّت وجهها شَطْر "أَرْضُرُوم" "قلعة الإسلام في الأناضول".

أصولُه ونشأته

انتقلت عائلة الأستاذ فتح الله إلى مركز "باسِينْلَر" ("حَسَن قَلْعة" سابقًا)، ثم إلى قريةٍ بين باسِينْلَر وأرضروم تُدْعَى "قُورُوجُق"، ومنذ أنْ حلَّ جدّه الأعلى خليل أغا بهذه المنطقة كانت تراوده أحلام العودة إلى أخلاط، بيد أنّ العائلة لم تستطع أن تعود، فاستقرّ بها المقام في قرية قُورُوجُق حتى غدا أكثر أهلها منها.

الإنسان في علم النفس الحديث إن هو إلا نِتَاج البيئة والوراثة؛ وهذه الفكرة وإن كنَّا لا نسلِّمها بإطلاقها، إلا أنّ تأكيده على البيئة التي يتربّى فيها الفرد له أهميّته، فمن يسبر حياة الأستاذ فتح الله يتبيّن له أن بيئة أسرته التي تربّى فيها كان لها بالغ الأثر في شخصيته، وأنَّها أساس في تكوين أهمّ خصال حياته "الفكر والحركة والدّقة"، لقد اصطبغت بيئة أسرته بصبغة الإسلام وهديه رغم كلّ الصِّعاب والعقبات في ذلك العصر، بل إنّ كل فردٍ في أسرته اصطبغ بصبغة الإسلام.

كان لِخُورْشِيد أَغا بن خليل أغا ولدان: سليمان أفندي والملَّا أحمد، اشتغل سليمان أفندي بالتجارة؛ أما الملا أحمد والد شامل أغا جدّ الأستاذ فتح الله فقد آثر الزهد رغم أنّه أُوتي سَعة من المال، فكان الزهد والتقوى لباسه، ورياضة النفس أساسُه، وله في حُبيبات الزيتون غَنَاء، قويّ البنية، طويل القامة، مهيب، يحترمه الناس جميعًا، في إشراقاته الروحيّة سرّ عظمته الحقيقية، حياته كلُّها تنسُّك وتعبُّد، لم يُعهَد عنه التواني في أداء العبادة، وصار يقوم الليل كلَّه في العقود الثلاثة الأخيرة من عمره،

لا يغمـض لـه جفن ولو في السَّـحر عندما يصرَع النَّومُ السُـمَّار، ولا يغفو سوى ساعة أو ساعتين فحسب.

كان شـامل أغـا جدّ الأسـتاذ فتح الله أشـبه الناس بوالـده، فهو مثال الوقـار، والحيطـة، والجديّـة، والشّـدة فـي أمر الدّيـن، فحياة الـرّوح هي محـور أفعاله، فشـعاره "اللهم لا عيـش إلا عيش الآخرة"، وهو رجل جادّ وَقـور يحترمـه الناس جميعًا، حياته حياة الأولياء؛ يتهجد حتى الفجر، وله في لُقيمات يقمْنَ صلبه الغَنَاء، يصوم حتى تظن أنّه لا يفطر، له من الأشقّاء أربعة: شاكر أغا، وعاكف أغا، وذاكر أغا، ومحمد علي أغا.

ومـا إن حطّـت العائلة رحالها فـي قُورُوجُق حتـى اضطرت للهجرة مرتين:

الأولى: أثناء الحرب العثمانية الروسـيّة (١٨٧٧- ١٨٧٨م) المعروفة بـ"حـرب ٩٣"[٩]، اضطـرب أمـر العائلـة، فرحـل المـلا أحمـد بأسـرته إلى ضواحي مدينة "سِيواس"، وأعوَزَت العائلة هناك، فلما انتهت الحرب عادت إلى قُورُوجُق.

في عام ١٨٩٠م بُعيد العودة الثانية إلى قُورُوجُق بنحو ٨-٩ سنوات؛ توفي الملا أحمد.

الثانيـة: إبّـان الحـرب العالمية الأولـى، ففي هذه المرة ذهب شـامل أغـا بأفـراد الأسـرة إلـى إحـدى قـرى "يَرْكُـوي" فـي مدينـة "يُوزْغات"، وما إن انتهت الحرب حتى عادت العائلة إلى قريتها في أرضروم -عادت- مترجّلة لِما حلّ بها من ضيق ماديّ.

(٩) اشتهرت هذه الحرب في التاريخ العثماني بـ"حرب ٩٣" لوقوعها عام ١٢٩٣ من التقويم الرومي.

ورغم هيبة شـامل أغا العظيمـة، إلا أنه كان بينه وبين حفيده فتح الله اتصـال روحـيّ لم يسـتطع أحد أن يلحظـه، كان يحبّ حفيـدَه كثيرًا وإن لم يكن يظهر ذلك، فما رُئيَ هذا الرجل العثمانيّ يبكي قطّ إلا عندما رأى حفيـده لأول مرة بعد غياب كان بسـبب تعيين والـده إمامًا في قرية أَلْوار، احتضنه فأخذه البكاء، وفاضت مشاعره بهذا الشِّعر:

غادرت وردتنا البلد الذي ... جفاه أحبّتي والعندليب
فابكِ إن شئت حبيبَك أو دعِ ... واضحك إن شئت فالبَينُ نحيب

ولشامل أغا ستة بنين وبنت اسمها دُرْدانة، والبنون هم: رامز وراسم ونور الدين وأنور وسَفَر وسيف الله.

أمّا أجداد الأستاذ فتح الله لأمّه فلا تكاد تختلف بيئة حياتهم الروحيّة عن أجداد أبيه في شـيء، كان جدّه أحمد أغا حفيد قُورْت إسـماعيل باشا ورِعًا حتى إنَّه كان يَخْشَـى الذهاب إلـى المدينة حذَرًا من أن يُقارِف ذنبًا، وكان يختـم القرآن كل أسـبوع مـرة فأكثر؛ أما جدَّته السـيدة خديجة فهي من سلالة حامي أدرنه شكري باشا.

كان للأستاذ فتح الله خال اسمه عبد الرزاق طُوب، قضى عنده فترة من طفولته، وهو إحدى فرائد عِقْده الروحيّ، وصفه الأسـتاذ فتح الله بأنّه من "أهل القرآن"، وقال: "إني لَأشبه الناس به في خِلْقته لا سيما العينين".

ولجدّتـه لأبيه السـيدة مؤنِسـة أثـرٌ بالـغ في حياته، فكـم كان يذكرها في مواعظه وإنَّ لأنينها ونحيبها من خشـية الله أثرًا كبيرًا في نفسـه، فعبادة الله ومحبته محور حياتها، حتى إنّها إذا سـمعت اسـم الله لم تملك عينيها، صوّامة صامت اثني عشـر عامًا متصلة، يصفها الأسـتاذ فيقول: "يا الله كم أَثَّـر فـيَّ عمقها مثـل البحار الهادئة، فبشـائر الإيمان عليهـا بادية، وصِلتها

بالله ظاهرة، كانت مبتسمة وكان جُل ضحكها التبسم". وفي هذا ما يشير إلى أنها كانت تجتهد في أن تجعل من أفعالها مِرآةً للإسلام.

في عام ١٩٠٥م وُلِد رامز أفندي والد الأستاذ فتح الله، حالَت هجرة الأسرة وما فيها من عقبات بين رامز أفندي والاستمرار في طلب العلم، إلا أنَّه بعزمه وإرادته تعلَّم تلاوة القرآن الكريم في عقده الثالث، وسرعان ما رقي به شغفه بالقراءة والعلم على سُلَّم العلوم الشرعية، حتى إنّه عُيِّن إمامًا؛ كان من سمته الدقّة البالغة في الحياة والخشوع في الصلاة، يستثمر وقته بدقّة، فتجده يملأ الفترة ما بين عودته من الحقل إلى إعداد الطعام بقراءة الكتب، وهو في الطريق تجده يقرأ القرآن الكريم أو يذاكِر ما حفظه من نَظْم العربية والفارسية؛ كان مضيافًا، لا يكاد بيته يخلو من العلماء وكأنّه معهد شرعيّ؛ كان قويّ الحافظة حادّ الذكاء، وكان يتميز -فضلًا عن هذا كلِّه- بالدماثة، ففي هذا المقام يقول الأستاذ محمد قِرْقِنْجي: "يا لَه مِن رجل! فرغم نشأته في قرية إلا أنه يباري من تربَّى في مدرسة أندرون العثمانية[١٠] من النبلاء، فأن تعرف متى وكيف وبأي أسلوب تتحدث تعوزك لهذا تربية خاصَّة وأخلاق سامية".

من الخصال البارزة في رامز أفندي تعلّقه بالصحابة الكرام ﷺ حتى لكأنّه مجنون بهم، وكثيرًا ما كان يقرأ عن حياتهم؛ فورث عنه الأستاذ فتح الله هذا الحبّ الجمّ لهم، بلغ ولع رامز أفندي بالصحابة أن أهل بيته كانوا يشعرون أنهم والصحابة أسرة واحدة، فذكرهم ديدنه، والحديث

(١٠) مدرسة في القصر العثماني أُسست في عهد السلطان مراد الثاني، وحُدِّثتْ في عهد السلطان محمد الفاتح، هدفها تربية الهيئة الإدارية والعسكرية للدولة، وتأهيل القوى العاملة في العاصمة العثمانية وفي الطبقة البيروقراطية في الريف.

عنهـم متعته، ولو رأيت هذا العاشـق الولهان يحـدِّث الناس عن الصحابة ويسرح بناظريه في الأفق لحسبتَه يراهم رأي العين.

كان رامز أفندي -في رأي الأسـتاذ فتح الله- أرضًا طيبة يُستنبت فيها الطيب النافـع، إلا أنّ الأجواء لم تأذن للرياح أن تسوق السحاب إلى هذه الأرض، وكان مدرسـةً فـي الوَرع؛ فكان إذا عـاد بالبقر من الحقل يلجمه لئلا يأكل من عشب الحقول ولو قليلًا.

تربية الشـرق هي نمط علاقة الأستاذ فتح الله بوالده، كان يجلس بين يدَيـه ليتعلّـم القـرآن، فيحبِّب إليه حفظه، ولم يكن ليُظهـر حبَّه لولده أمام أحد رغم أنّه كان يحبُّه حبًّا جمًّا.

أمَّا والدة الأستاذ فتح الله فهي السيدة رفيعة، معلِّمه الأوّل، وهي من أسرةٍ عريقة، فعمُّها هو مفتي الشام يومئذ، كانت ربّة منزل فيه خمسة عشر فردًا تقوم على شـؤونهم، ومـع هذا دأبت على تعليم نسـاء القرية القرآن رغـم الأخطار فـي الفترة التي حُظِرت فيها قراءة القـرآن وتعليمه؛ علّمت وليدهـا فتـح الله قراءة القرآن وهو في الرَّابعة، وما إن تعلّمه حتى قرأه كلَّه لأول مرة في شـهر، فكان للسـيدة رفيعة أكبر الأثر في حياة الأسـتاذ فتح الله بعشـقها لتعليـم القرآن الكريـم، ومواظبتها علـى أداء العبادة، وحياتها الملأى بالمسؤوليات.

يا الله ما أوثق صلة هذه السـيدة بربّها! ذات ليلة همّ الأسـتاذ فتح الله ابن الثانية أو الثالثة عشرة أن ينام قبل أن يصلي العشاء، فآذَنَتْه أمّه بالصلاة، فأجـاب: "إننـي مُرهَق، لعلِّي أسـتيقظ ليـلًا وأصلي"، فقالت: "ربما يشـق عليك ذلك، فتفوّت الصلاة، ثكلْتُكَ الليلة إذا لم تنهض لتصلي". بلـغ بها إيمانها أنها تستغني عن فلذة كبدها إن لم يأتِ بما أمر به الله.

بيْـنَ الأسـتاذ فتـح الله وأمّـه وشـيجة حبّ وثيقـة، فهو يدهـا اليمنى في البيت، إذ كان لها ثمانية أولاد ترعى شـؤونهم، فكان الأسـتاذ فتح الله -وهـو يحفـظ القرآن في هـذه الآونة- يغسـل -وهي مريضـة- الملابس والأطباق، ويطبخ ويعجن... نعم، فدأب أمّه على تحفيظ القرآن، ورعاية أولادها رغم أنها مجهَدة مرهقة، ومواظبتُها على أداء الفرائض حقَّ الأداء، كل ذلك كان له بالـغُ الأثر في حياته.

توفي ثلاثة من إخوته العشـرة وهو طفل، كانت السـيدة "نور الحياة" أكبرهـم، ثـم فضيلة إلا أنها وافتها المنية وهي طفلة، ثم الأسـتاذ فتح الله، فصبغة الله، ثم المسيح، ثم فقير الله إلا أنه توفّي وهو طفل، ثم حسبي[١١]، فصالـح، وفضيلة، ثم نظام الديـن إلا أنّه توفّي وهو طفل، ثم قطب الدين أصغرهـم؛ وبيـن الأسـرة عُرى وثيقـة من الحـبّ والتقديـر، فعندما غادر الأسـتاذ فتـح الله أرضـروم إلى أدرنه ومنها إلى الجيش لم يكلِّم المسـيح أحدًا خلال أربـع سنوات فارقهم فيها أخوه الأكبر، قلّما تحدث إلى أحد، إذ صار شغفه بأخيه فتح الله حجابًا بينه وبين الناس. وكذلك كان الأستاذ فتح الله، يحكي أن أختًا له توفيت في طفولته فبكى عليها كثيرًا وزار قبرها كثيرًا وكان يدعو: "اللّهم ألحقني بأختي لأراها".

يُـروَى عـن أمّـه وذوي القربى القريبـة أنّ أصوله من جهـة أبوَيه من شجرة أهل البيت المباركة، لكن الأستاذ يقول: "إنّه لا يمكن القطـع بشيء في هذا؛ فكتاب شجرة العائلة مفقود".

ومـن ألمـع الحلقات التي تشـكّل منها عقد الروح في حياة الأسـتاذ فتح الله: الشيخ "أَلْوارْلي أَفَه"، فهو واسطة العقد، بل كأنه مغنطيس المعنى

(١١) حسبي ندائي كُولَن توفي في ١٢ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٢م.

ومنبع تتغذى منه روح الأستاذ فتح الله، فالحديث عنه قبل دراسة حياة الأستاذ فتح الله ضروريّ جدًّا؛ لنتعرف على بيئته التي ترعرع فيها.

برَزَ الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه في طليعة علماء عصر الجمهورية، فنشأته شهدت أفول الدولة العثمانية وظهور الجمهورية، وله أثرٌ كبير على الأستاذ فتح الله في تربيته وتعليمه، يقول الأستاذ: "الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه هو اليد الخفية التي كانت وراء ما أجده من مشاعر"؛ فتربَّى في أرضٍ كان ينبوعها السيد أَلْوَارْلي أَفَه؛ وكان له في قلوب الأسرة كلِّها حبّ جمّ وتقدير وتوقير، يقول الأستاذ: "أتذكر أن خالي كان يجله حتى لكأنه يكاد يبسمل كلما ذكر اسمه؛ أمَّا خالتي فهي مُتَيَّمَة بهذه البيئة، ولأبوَيّ وشيجة عريقة به... فمنذ أن رأيت النور ألفيت أبوَيّ يرتشفان من هذا الينبوع الصافي كأنهما ظمآن برّح به العطش".

وتحدّث عن صلته بالشيخ أَلْوَارْلي أَفَه فقال: "لم يكن ينبس ببنت شفة إلا حسبتها إلهامًا من عالم آخَر، فعندما كان يحدِّثنا كنَّا ننصت إليه كأنّ على رؤوسنا الطير، لم يُعهد من قبل! لا أدعي أني أحطتُ به فهمًا؛ فيوم وفاته كنت في السادسة عشرة، إنّه الروح التي دغدغت باكورة الروح والمعنى في حياتي، يتنزّل بأسلوبه لأعي عنه وأفهمه لا سيما أني صغير لا يبلغ عقلي ومداركي كُنهَه؛ لقد عاش عظيمًا، لكن لم يجد الكبر إلى قلبه طريقًا، كان يطوف في كعبة القرب من الله، لا يأبه لشيء من الأبهة والعظمة، فهو كطير "حوما" ترى ظلّه لكنك لا تراه".

أحبّ الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه الأستاذ فتح الله أيّما حبّ، وكان يناديه "تلميذي"، ولا يرضى أن يفارقه بتاتًا، ولما بلغه أنه سيتعلّم العربية

على يد معلِّم آخر، استدعاه وقال بوقار ونبرة يخصّه بها: أقسم بالله ثلاثًا أنك لو ذهبت لمُزِّقت إِرَبًا إِربًا.

وغدت تلك الحلقة واسطة العقد في عالمه الروحي، ولطالما تجلّت آثارها في روحه، فتربية الأستاذ فتح الله منذ نشأته كانت في بيئة علمٍ تسود أجواءَها ألطاف روحية، إنها بيئة مفعمة بنسائم حياة التكية الروحيّة تارة، وبعلم المعاهد الشرعية تارة أخرى، ذاك هو المناخ الذي نشأ وترعرع وتربّى فيه الأستاذ فتح الله.

obeikandl.com

مولده وطفولته

ولد الأستاذ فتح الله في ٢٧ نيسان/إبريل ١٩٤١م وفقًا لبطاقته الشخصية، لكن تاريخ ميلاده الحقيقي كان قبيل هذا بنحو عامين أو ثلاثة، فالمواليد في بيئته وعصره لم تكن تُقيَّد على الفور، وكثيرًا ما يشير في ذكرياته إلى أنه ولد قبل هذا.

أمّا طفولته وفتوته فلم تكن كتلك التي عاشها أقرانه؛ فلنشأته مناخ متميز هيّأته له خصائصُ أسرته آنفة الذِّكر، وملازمةُ أهل الذِّكر والعلماء النيّرة بيتهم بسبب حب والده رامز أفندي ضيوف عامَّة وللعلماء خاصة، ومن حديثه عن هذه الفترة: "للعلماء والمشايخ رعاية وحظوة خاصَّة في بيتنا، ومن المحبوبين المشهورين الذين كانوا يأتون بيتنا على الدوام الشيخ أَلْوَارْلي محمد لطفي أفندي، وأخوه السيد وهبي أفندي، وسِرّي أفندي، وشهاب الدين أفندي... لم أجالس أترابي وأقراني قطّ في طفولتي أو فتوتي، فديدني أن أجلس إلى الكبار وأصغي إليهم، حتى أصبح ذلك خلقًا فيّ، ولوالدي أثر كبير في هذا؛ فحديث هذه المجالس تطرب له الآذان وتستملحه العيون، لا سيما حديث الشيخ أَلْوَارْلي فكلما حدثك قلت: هل من مزيد؟ وربما لم أستطع فهم كلّ ما كان يقول، لكني كنت أحفظه كلّه؛ فأحكيه لأمّي وجدتي وأزواج أعمامي، وهذا له مذاق خاصّ عندي".

وبدأ ابن الرابعة يتعلم القرآن الكريم بالتزام ودقّة عالية، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية في قريته عامين أو ثلاثة، إلا أنه تركها عام ١٩٤٩م

عندما عُيِّن والده رامز أفندي إمامًا في قرية أَلْوَار، ثم استكمل الابتدائية في أرضروم بالانتساب.

مسقط رأس الأستاذ فتح الله في قرية قُورُوجُق بمدينة أرضروم

بدأ ابن الرابعة الصلاة وواظب عليها، حتى إنه أعاد في الآونة الأخيرة ما أدّاه من صلاة في مرحلة عمرية معينة قائلًا: "ربما أخطأت في أداء الصلوات حينئذ"، وكان لا يتهاون في أداء الصلاة وهو في المدرسة ولو على مقعده، رغم سخرية أحد معلميه وغضبه؛ أمَّا المعلمة بَلْماء هانِم -وهي من إسطنبول- فكانت على خلاف هذا المعلم، فهي تجيد فن الحديث مع طلابها، وتثني على فتح الله في اجتهاده وتفوقه وأدبه؛ وجدت اسمه ذات مرة في قائمة الشغْب في الفصل، فقالت له في دهشة "حتى أنت؟!" والحُرّ تكفيه الإشارة ففيها أشدّ الإيلام، وكانت هذه المعلمة على يقين بأنّ لتلميذها مستقبلًا واعدًا، وقالت

في هذا لطلابها مشيرة إلى فتح الله: "كأني أرى الآن بينكم ضابطًا شابًّا يصول ويجول على جسر غَلَطَة".

وتحدّثنا عن تلك الأيام وهي فخور بما يقدِّمه الأستاذ فتح الله اليوم، فتقول: "لم يكن فتح الله كغيره من الطلاب؛ ولد وقور، مجتهد، محترم، واسع الأفق، كنت أفخر به... لم يكن مشاكسًا كغيره؛ كان قوي البنية أبيض، يجلس فى آخر الفصل عند النافذة، ينظر إلى المعلِّم بيقظة وانتباه، لا يتباهى بنفسه أبدًا، متزنًا جدًّا، يشاهد ما يقع من أحداث، ولا يقحم نفسه فيها ألبتة؛ إذا عزم على أي شيء فعله، كان رزينًا، من خلقه ترك ما لا يعنيه، يراقب عن بعد ولا يُقحم نفسه، دائم التفكر، بعيد الغَوْر، الأدب والهدوء شيمته.

أنا بوصفي تربوية أفخر به، فلِما قام به من إنجاز في التربية والتعليم في تركيا وأنحاء العالم كله دورُ الرّائد في تعريف العالم كلّه ببلدنا وأمتنا، فما قام به يكفي لكي أفخر به".

ولم يكن يقتصر تميزه على أترابه في سلوكه وأفعاله فحسب، بل هناك مواقف أخرى تظهر هذا التميز؛ استيقظ ابن السابعة أو الثامنة ذات ليلة قائلًا: "لبيك يا رسول الله"، وكانت أمّه بجواره حينئذ، فأذهلها ذلك، ومضى على هذا ليالي عدّة، فقلقت وخافت عليه، فأخبرت زوجها رامز أفندي؛ وذات ليلة راح رامز أفندي وزوجه يراقبان ما يجري، فتكلم فتح الله وهو نائم، لكنهما لم يفهما شيئًا مما تحدّث به، فلما استيقظ سُئل عن هذا، فلم يقل شيئًا، وأغلق الموضوع.

عُنِيَ الفتى بالعبادات منذ نعومة أظفاره، وتلك ميزة أخرى، ففي العاشرة سألته أمه: أين كنت يا بنيَّ، لقد قلقت عليك؟ فقال: في المسجد

يا أمّي، صلّيت سبعين ركعة، فسألته: "وماذا كنت تصلي يا بنيّ؟"، فقال: قضيت الصلوات الفائتة"؛ وفي الليالي المباركة كان يعود إلى البيت متأخّرًا، فتقول أمّه: "إمام المسجد عاد مبكّرًا ونام -تشير إلى زوجها- فلماذا تأخرت أنت؟" فيقول: "ما زلْت أصلّي يا أمي". تعلَّم الصلاة في الرابعة فواظب عليها، وكانت حِلْيتَه، فكلما وجد فرصة تجمَّل بها، فكانت قرة عينه في الصلاة.

obeikandl.com

في أرضروم:
بين طلب العلم والمعاناة

حفظ الفتى القرآن الكريم عام ١٩٥١م، وكان إذا حفظ وِردَه راح يساعد أمّه في البيت أو عكف على الكتب يقرأ ويقرأ، لقد قرأ كتب أبيه كلّها لا سيما كتب حياة الصحابة الكرام؛ فهو يتقن قراءة الكتب العثمانية منذ صغره، وفي هذه الفترة أخذ عن والده اللغة العربية والفارسية، ولما حفظ القرآن، أخذ التجويد عن الحاجّ صدقي أفندي في "حسن قلعة"، ولم يكن له مسكن هناك؛ فكان يمشي كلّ يوم مسافة ٧-٨ كليو مترات من أَلْوَارْ إلى حسن قلعة.

ألقى الأستاذ فتح الله في تلك الحقبة أول موعظة، فكانت نموذجًا مهمًّا كشف عن غزارة علمه ومهارته الفذّة في الخطابة؛ كان أبوه رامز أفندي يعظ الناس في رمضان بعد الإفطار في مسجد قرية أَلْوَارْ، فتأخر ذات ليلة، وكان فتح الله يغدو إلى المسجد مبكِّرًا، وعمره آنذاك أربعة عشر عامًا؛ فاجتمع المصلون، فإذا بوجيه من أَلْوَارْ يحظى باحترامهم جميعًا يُدعى كاظم أفندي ينظر إلى الفتى فتح الله، فتلتقي أعينهما، فينهض كاظم أفندي ويُلبس فتح الله جبة رامز أفندي وعمامته في دهشة غمرَت المصلّين وفتح الله أيضًا؛ فسنّه أصغر من أن يقف مثله ليعظ هذا الحشد، بل إنّه لم يكن يطول كرسي الوعظ، فحملوه وأجلسوه عليه؛ وما إن شرع في الموعظة حتى أخذت الجماعة -التي لم تجد تفسيرًا لتقديم هذا الفتى لكرسيّ الوعظ- تنصت إليه بذهول، وكم عجبوا لهذا

الصوت الذي يدوّي من على كرسيّ الوعظ، فكان لموعظة الفتى أبلغ الأثر على الجماعة.

أتم الفتى دراسته في أَلْوَارْ ولمّا يقرّرْ والده رامز أفندي ماذا سيفعل، فقال الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه: علينا أن نعلِّم هذا الفتى، فبدأ فتح الله يدرس اللغة العربية في أرضروم على يد سعدي أفندي حفيد الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه؛ ورغم أنّه شابّ مستقيم نزيه يكبر فتح الله بـ ٥-٦ سنوات إلا أنه كان قصير الباع قليل الخبرة في أساليب التدريس؛ فلم يكن ليروي ظمأ فتح الله؛ وكان فتح الله يتردد حينئذ على قرية أَلْوَار لئلا ينقطع عن مناخ الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه.

وصف الأستاذ فتح الله نظام مذاكرة الدروس فقال: أذاكر دروسي الأول فالأول، أقضي الليل في المذاكرة ولا أنام إلا قليلًا، أستضيء بشمعة، فلا حيلة لي سواها، ولا تمر ليلة دون أن يمرّ المعلم بي يَتَفقدني خفية، فيسعد بي كلما رآني أذاكر.

توفي جدّه شامل أغا وجدته السيدة مؤنسة في ساعة واحدة عندما كان يدرس في أرضروم عام ١٩٥٤م، فحزن لفقدهما كثيرًا، يقول: "بكيت أيامًا وليالي، دعوت ليل نهار: اللهم ألحقني بجدي وجدتي لأراهما... لم أعْتَدْ على فراقهما حتى الآن، فكلما تذكرت واحدًا منهما تلظى قلبي على مثل الجمر، وتأثّرت كثيرًا"؛ وفي هذا ما يبين عن منزلة جدّه وجدته وأهميتهما في حياته.

وقعت حادثة أخرى في هذه المرحلة الدراسية، فزلزلته؛ توفّي الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه... انقشعت سحابة العناية التي أظلّت حياته العلميّة والروحية... وهو يصف وقع وفاة الشيخ عليه، فيقول: "كنت في ذلك اليوم في أَلْوَار،

وأظنّه وقت الضحى، وبينما كنت أستجمّ متكئًا على أريكة في ردهة المنزل، إذا بي أسمع صوت هاتفٍ، إنه ليس بنداء بل هو صراخ! صراخ أصك مسمعي بقوله: "مات أَفَه!"؛ ففزعت، وأخذت معطفي، وهُرِعت إلى بيت الشيخ، ولما بلغتُ البيت باغتتني الفاجعة، فالشيخ أَلْوَارْلي أَفَه مات حقًّا حقًّا... فقد ترك فراغًا أنَّى له أنْ يُملأ من بعده! أيام وشهور من الأنين والنحيب... أما مقلة الروح فما جفت مآقيها حتى اليوم".

قبر شامل أغا جد الأستاذ فتح الله وجدته مؤنسة هانم في قرية قُورُوجُق بمدينة أرضروم

في هذه الفترة رَحَل والد الفتى فتح الله عن قرية أَلْوَار، ليصبح إمامًا برهةً من الزمن في قرية "أَرْتُزُو".

واستقرّ الفتى بمسجد "قُرْشُنْلُو" بمدينة أرضروم في مدرسة كان يُدرِّس فيها سعدي أفندي من قبل، مدرسة صغيرة سقُفها خشب، يقيم فيها خمسة طلاب أو ستة؛ وقد عانى فتح الله كثيرًا، ورغم المشاق التي جابهته

إلا أنّه واصل طلب العلم، يحكي عن تلك الفترة فيقول: "كان لدينا موقد غاز، نطهو طعامنا ونأكله في غرفة نومنا؛ كان الطلاب الموسرون يغتسلون عند الحاجة في حمامات "قِريق جَشْمَه"، أمّا الفقراء فأحيانًا كانوا يحصلون على تذاكر مجانيّة، وإلا تجشموا الأمرَّين، وأنا منهم، فكم كنت أغتسل في المراحيض في الشتاء القارس، فتلتصق قدماي بالجليد، فأغسل واحدة وأضعها على الأرض ثم أغسل الأخرى، إن أَنْسَ لا أنسى الماء البارد وأنا أصبُّه على رأسي، كنَّا حقًّا في ضنك وضيق"؛ ولهذا اضطر الفتى فتح الله لقبول مكافآت على ختمه القرآن الكريم أثناء دراسته، ولطالما ضاق بهذا الأمر، كان يرى أن ما اضطر لأخذه لاستكمال دراسته وهو شابّ ضرورة، والأصل عدم الجواز؛ فلما عُيّن إمامًا وتقاضى راتبًا ردّ ما أخذه وهو في أرضروم، وأرسله مع أخيه حسبي عندما جاء يزوره.

ويسترعي الانتباه ما ذكره حافظ سعدي قايخان زميل الأستاذ فتح الله عن الحياة في المدرسة بجامع قُرْشُنْلو، يقول:

"التحقت بمدرسة قُرْشُنْلو عام ١٩٥٣م، كان الأستاذ فتح الله آنذاك طالبًا فيها، فتعرفت عليه، كانت المدرسة يومئذ مهملة، ومن يرعى الطلبة هم قلّة من ذوي الغيرة على الدين؛ لم يكن يُطهَى في المدرسة سوى البطاطس، وكانت كل غرفة تطهو طعامها بنفسها بالتناوب، وكان الأستاذ فتح الله هو من يطهو دائمًا في غرفته، وكان يفتح شهيتي عند كلّ طعام ويقول: "طهوت لك طعامًا، ستأكل من ورائه أصابعك"؛ فنظن أننا سنأكل طعامًا مختلفًا هذا اليوم، فإذا بالبطاطس أمامنا مرة أخرى، إلا أنه كان يطهو البطاطس كلّ مرة بطريقةٍ جديدة، يخدم نفسه بنفسه، لم أره قطّ يأمر أحدًا أن يفعل له شيئًا، يخدم الآخرين ويساعدهم ما استطاع.

كان ينتقد ما رسَب لدى العامّة من أخطاء بلا تردد ولا وجَل، لا سيما ما يبالغ فيه من حكايات يحبّ الناس قراءتها وسردها، تجده يفنّدها على الدوام، ويقول: إنها أكاذيب؛ كنا نستغرب مواقفه حينئذ؛ وتمضي السنون وها نحن نوقن أنه كان على حقّ.

لا أعلم أحدًا مثله يحافظ على هيبة العلم؛ كنا إذا حضرت جنازة يلتمس الناس منّا أن نقرأ مقابل شيء من المال، فكنَّا ننتظر هذا اليوم بفارغ الصبر؛ فمعظمنا من الفقراء المعوزين، لكن الأستاذ فتح الله لم يكن ليذهب رغم شدة عوزه، بل كان يحاول منع من يذهب، وأحيانًا كان الجدل يحتدّ ويحتدم في هذه الأثناء حتى لَكَأنَّه شِجار.

ملابسه نظيفة جدًّا، ولا يسمح لأحد باستخدام أغراضه؛ فاهتمامه بأغراضه لا يخفى، فما كنّا نهمله كان هو يعيره اهتمامًا جمًّا؛ وكان إذا رأى شيئًا جديدًا لم يأل في تعلّمه تفصيلًا، وله ميزان حسّاس في التعرف على الناس.

كان موجِّه المدرسة حسًّا ومعنًى، ولا أحد يتطلع إلى أن يقارن نفسه به في هذا، فنحن جميعًا أذعنَّا بذلك ولم يفرِضه علينا، كان مهيبًا تستحوذ هيبته على من حوله وتفرِض عليهم احترامه، لا طاقة له بتحمل الظلم ألبتة، فله موقفه ممن يظلم أيًّا كان الظالم، وكان يحثّنا أيضًا على فعل هذا".

تلك الشمائل جاء ذكرها في يوميّات الأستاذ حاتم صديق الأستاذ فتح الله، وزاد عليها تواضعَ الأستاذ فتح الله وعنايته البالغة بالنظافة، يقول: "كنّا نحضر الجنائز لنقرأ القرآن بشيء من المال، أما فتح الله فكان يأبى، طلبنا العلم أوَّلًا عند سعدي أفندي حفيد الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه محمد

لطفي أفندي، فلما التحق بالجيش تحوّلنا إلى الأستاذ عثمان بَكْتاش؛ فعرّفني والدي على الأستاذ فتح الله منذ أن التحقت بالمدرسة، قال لي: "هذا فتح الله بن رامز أفندي، سيكون عونًا لك"، قال هذا وذهب وكأنه يستودعه إياي؛ فكنت أذهب معه إلى الدروس حتى بعد أن انتقلنا إلى الأستاذ عثمان؛ ولا أتذكر أني أديت صلاة بدونه قطّ، كنت ظلّه الذي لا يفارقه أينما ذهب، كان الأستاذ فتح الله عاكفًا في المدرسة يومئذ، لكنّه لم يكن في عزلة عن العالم الخارجيّ.

كانت النظافة من أبرز شمائل الأستاذ فتح الله أثناء دراسته، فملابسه نظيفة دائمًا، وله فضل عناية بنظافة مسكنه، بينما كاد مفهوم النظافة يكون معدومًا في المدارس يومئذٍ، رأيته مِرارًا يشمر عن ساقيه، وينظف المراحيض، وكان ينظف داخل المدرسة وخارجها جيّدًا، له حسّ مرهف، فهو يشمئز من أدنى شيء، إلا أنّ هذا لم يحُل دون تنظيفه لمراحيض المدرسة.

لم أفارقه أيّام الدراسة حتى رحل إلى "أَدِرْنَه"، وكان يترك المدرسة أحيانًا ويذهب، فكنت أتوسل إليه كثيرًا ليعود، وأحيانًا كنت آتي بسريره دون علمه، فإن لم أقوَ على شيء من هذا حملت سريري ولحقتُ به أينما ذهب؛ كان يعظ هنا وهناك، فأنتظره حتى ينتهي لنعود معًا إلى المدرسة، قضينا أيامًا كلّها ذكريات جميلة، بل لعلّها أجمل أيام حياتي".

قضى الأستاذ فتح الله مدة في مدرسة مسجد "قُرْشُنْلو" ثم غادرها إلى مدرسة مسجد "كَمْخان" إثر خلاف مع سعدي أفندي، فما انقطع عن طلب العلم رغم كلّ المشاقّ.

في هذه الفترة وقعت واقعة أظهرت مدى الاحترام والأدب ورهافة الحس لدى ابن الخامسة أو السادسة عشرة: "كانت المدرسة التي أوى

إليها مثل مدرسة "قُرْشُنْلو" لا تتسع إلا لخمسة طلاب أو ستّة، فإن طرقهم ضيف لم يتسع المكان للنوم؛ يحكي الأستاذ فتح الله ما حدث معه وهو يحاول أن ينام في مكان ضيّق، يقول: "جئت لأنام فإذا بقدمَيّ بمحاذاة رأس أحد زملائي، فكرهت ذلك؛ لما أنه لا يليق بزميلي، أمَّا الجهة الأخرى ففيها الكتب، ويستحيل أن أمُدّ قدمَيّ تُجاه الكتب، والجهة الثالثة هي جهة القبلة، فليس أمامي سوى الجهة التي إليها قرية قُورُوجُق لأمدّ بها رجلي، فخشيت أن أمدّها ويكون أبي هناك، فأسيءَ بذلك أدب معاملة الوالد؛ فقضيتُ عدة ليالٍ مستيقظًا لا أنام؛ وأشير هنا إلى أني لم أمد قدميّ في حياتي جهة قرية قُورُوجُق مسقط رأس والدي ومثواه، وهذا من معاني احترام الأبوين عندي".

استمرَّ الأستاذ فتح الله ستة أشهر في تلك المدرسة، واضطر لمغادرتها عندما ضم مؤذن المسجد نصيب المدرسة لبيته، ثم التحق بمدرسة "طَاشْ مسجد"، وسرعان ما غادرها لضيق بعض من فيها به.

واجه الأستاذ في رحلته العلميّة عقبات كثيرة بسبب السَّكن، فعانى أيّما معاناة؛ إذ من المستحيل على شاب عزَب إذ ذاك أن يستأجر منزلًا في أرضروم، ثم عثر على كوخ صغير لحذَّاء التحق بالجيش، فأبرم معه عقدًا، لكنّ الحذّاء نقضه، ويصف الأستاذ فتح الله الموقف فيقول: "وقفت على قارعة الطريق، حقيبتي بيدي، ولا مأوى لي".

وكان الفرَج في كوخ صغير آيل للسقوط في مسجد الأحمدية بجوار مسجد مُراد باشا، كان المسجد قد أُهمِل، فلا أحدَ يرتاده، وغدا محرابه الذي فيه من التجاويف الكثير مأوى صغيرًا بعد أن قُسّم منذ حين، فبنى الأستاذ فتح الله وزميله "ذو النور" جدارًا، ورفعاه قليلًا، وأحضرا مدفأة

صغيرة، وهكذا حُلَّت مشكلة المأوى؛ وما زال الأستاذ فتح الله يقيم ههنا أثناء الدراسة حتى لحِق بأدرنه، ورغم تحذير كثيرين لهما من أن جدارهما عُرضة للسقوط في أي لحظة؛ لم يصغيا إلى أحد، وأنهى الأستاذ فتح الله دراسته، والكوخ قائم، وظلّ يؤوي كثيرًا من الطلبة أمدًا بعيدًا بعدهما.

مدرسة مراد باشا التي درس فيها الأستاذ فتح الله كولن

تـرك الأسـتاذ فتـح الله سـعدي أفنـدي وذهب إلـى الأسـتاذ عثمان بَكْتاش، فدرس عليه قرابة عامين وهو من هو في النحو والصرف، والفقه وأصوله، وغيرها من علوم الشريعة، فمفتي المدينة كان يستدعيه إلى مكتبه ليستشيره كلما عرضت له نازلة. ولما رأى في تلميذه الجِدّ والاجتهاد نقله إلى مسـتوى أعلى، وقال: لا ينبغي أن نشـغلك بهذه الـدروس الابتدائيّة، عليك بكتاب الملا جامي[١٢]، وراح يدرس في هذا المستوى مـع من لهم قدَم سبق في العلم والتزكية أمثال الأستاذ محمد قِرْقِنْجي.

(١٢) كتاب "الفوائد الضيائية" في الصرف والنحو، لنور الدين عبد الرحمن بن أحمد الأديب الفيلسـوف المشهور بـ "الملا جامي" (١٤١٤-١٤٩٢م).

كانت علاقته بمدرسته وطيدة غير أنه لم يُغفِل الزوايا بتاتًا، فتربيتها ظاهرة عليه في مراحل حياته كلّها منذ أن بدأ مع الشيخ أَلْوَارْلي أَفَه، ولما توفّي لحِق بزاوية الشيخ القادري راسم بابا، فعُنِيَ به الشيخ كثيرًا، حتى راجت إشاعة بأنه سيزوجه ابنته، فترك الزاوية ولم يعاوِد؛ لكنه استقام على آدابها وتربيتها، فالتصوف عنصر رئيس في حياته وفكره، يقول: "اختمرت روحي في الزوايا منذ الصِّغر، وما زال أثر المدرسة والزوايا في حياتي سواءً كَكِفّتَي ميزان".

وكان يستثمر وقته بعد الدراسة جيّدًا، فنسيج حياته في منتهى الإحكام، كان يمارس الرياضة؛ فهو نشيط مَرِن، واعتاد زيارة مقابر الصالحين بأرضروم في جهمة الليل دائمًا، يقرأ القرآن على الموتى هناك؛ كان فتًى مقدامًا لا يهاب شيئًا، يعود من المقابر في غَيْهَب الغَسق فيمر بأماكن يخاف الناس منها.

وله فضل عناية بملابسه في شبابه، بل هذا دأبه في حياته كلِّها، فكان لباسه نظيفًا أنيقًا رغم الصعوبات، يقول: "كثيرة هي الأيام التي لم أجد فيها طعامًا، لكني لم ألبَس بنطالًا دون كيّ قطّ، ولا حذاءً دون تلميع، وإذا لم أجد مكواة وضعت بنطالي تحت الفراش، فإذا به كالمكوي من الثِّقل؛ وربما يعجب أصدقائي من هذا، ولا يستطيعون أن يوفّقوا بين ملازمتي للزاوية وبين زيادة الاهتمام بملبسي وتَطوافي بنشاط وانفتاح، حتى إن أحد أصدقائي غضب لأني لا ألبس البنطال إلا مكويًّا، وقال لي كلمةً لا أنساها أبدًا: "اتقِ الله يا أخي"، ولم أفهم إلى اليوم ما علاقة التقوى بكيّ البنطال".

قد حفظ الله للشابّ في فتوته عِقْد الروح الذي نشأ وشبّ فيه، فما خلعه ولا خرج عنه؛ كان في تلك الفترة قد حضر حفل زِفاف مرَّتين:

فبينما كان يشاهد في الأولى الثمالى جاءه أحدهم فلطمه وطرده قائلًا: "ماذا تفعل هنا؟!"؛ وفي الثانية لما رجع طرق الباب فلم يسمعه والده مع أنه خفيف النوم، فبات مرغمًا على الانتظار في الثلج حتى الصباح؛ فكانت له في هاتين الواقعتين عبرة، فغدا في شبابه حذِرًا أيّما حذر إزاءَ ما يفتح أمامه بابًا إلى المعاصي.

عرف الفتى فتح الله "رسائل النور"[١٣] وهو طالب بأرضروم، كان الأستاذ محمد قِرْقِنْجي قد دعاه إلى دروس رسائل النور، يوم أن زار "مظفَّر أَرْسْلان" أرضروم في طريقه إلى سِيواس وأَرْزِنْجان، وكان الأستاذ بديع الزمان سعيد النُّورسي كلّفه بهذه المهمّة: "طوِّفْ في الشرق"؛ أُخِذَ الفتى بما سمعه في أول درس وبمَن حضر أيضًا لا سيما أنّه رأى فيهم حياة الصحابة خاصةً الصِّدق والزهد، فتأثّر كثيرًا بهذا، ولازم الدّرس رغم اعتراض أستاذَيْه سعدي أفندي وعثمان بكتاش، يقول: "كان زهد طلاب رسائل النور يفيض عليّ بمشاعر متنوّعة، علاوة على تعمقهم في العبادات، فصلاتهم ودعاؤهم غير ما عهدتُه من غيرهم"، وبلغت سعادته أوجها عندما أقرأَه الأستاذ النُّوْرسي السلام في إحدى رسائله إلى أرضروم.

كان لرسائل النور وقرَّائِها بالغ الأثر في حياته، ففي ليلة مباركة بمسجد لالَهْ باشا صلَّى العشاء، وحضر دعاء ختم القرآن ألف مرة ومرة[١٤]، ثم صعد إلى مقصورة المسجد يتضرع ويدعو الله أن يُلْحِقَه

(١٣) كليات رسائل النور التي ألّفها بديع الزمان سعيد النورسي تضم تسعة أجزاء سجل فيها الأستاذ النورسي كل ما استلهمه من نور القرآن الكريم من معاني الإيمان وأملاها على محبيه في ظروف عسيرة بقصد إنقاذ إيمان الناس في هذا العصر العصيب بإحياء معاني القرآن ومقاصده في النفوس والعقول والأرواح.

(١٤) عادة سنوية في أرضروم يختم الناس فيها القرآن معًا ألف ختمة وختمة، ثم يدعون عقب تلك الختمات في مسجد جامع بالمدينة.

بكتائب طلاب النور، يقول: "ما إِن صليت حتى وجدتني قد امتلأت شوقًا ولوعة ولهفًا لا يوصف، تضرعت إلى الله بكل كياني: "اللهم لا ملجأ لي إلا إليك، فتقبلني فيمن تقبّلت من هؤلاء الإخوة، واجعلني منهم، وحبِّب الخِدمة إليّ، لأهب روحي لها، ولا تجعلني بينهم عابر سبيل". ابتهلت تلك الليلة حتى السّحر، بكيت وجأرتُ وفاضت عيناي حتى الصباح؛ -ما وُفّقتُ الدعاء بمثل هذا الحال في عمري إلا مرة أو مرتين- وما دعوت الله ﷻ في ذاك اليوم بغير هذا، وما رغبت إليه بشيء سوى قبول الدعاء". وفي صبيحة تلك الليلة التقى بزميله في الدراسة الأستاذ حاتم عند باب المسجد، فقصّ عليه الأستاذ حاتم رؤيا رآها بالأمس، وكأنها بشرى بقبول الدعاء، قال: "رأيت الأستاذ النُّورسي الليلة، وكان يرسل لك رسالة ومعها جرةٌ مملوءة بالجوز".

ورحل من أرضروم إلى مُدن أَماسْيا وطُوقات وسِيواس عام ١٩٥٧م ينصح ويعِظ؛ فكانت تلك فرصته للتعرف على أهل الأناضول عن كثَب، ثم عاد إلى أرضروم مرةً أخرى.

أدرنه:
بذرة في رحم الأرض

يحبِّذ والد الأستاذ فتح الله أن يعمل ابنه خارج أرضروم بينما كانت أمُّه تضنّ به وتكره فراقه، فتَقرّر أن يذهب إلى أدرنهْ حيث أقارب والدته، ومنهم حسين طُوب، وهو إمام هناك؛ اتجه فتح الله إلى أنقرة أوَّلًا، ومكث فيها بضعة أيام في منطقة "الحاج بَيْرام ولي" الطيبة وأحبّها حبًّا جمًّا، وزار النائب بمجلس الشعب السيد مصطفى زَرَن أحد أقارب والده، وبات عنده ليلة؛ وكان في تلك الأيام يتابع مسابقة وزارة الأوقاف للوظائف، ثم اتّجه إلى إسطنبول، ونزل في فندق "أرضروم" بسِرْكَجي الذي يسكنه أبناء مدينته وبات فيه بضعة ليال؛ ثم وصل أدرنه ذات ليلة، فنزل في فندق عند مسجد "الشرفات الثلاث" الذي غدا إمامه بعد ذلك؛ وفي الصباح قابل الأستاذ حسين طوب، فذهب به إلى المفتي إبراهيم أفندي، لكنه رآه شابًّا فاستهان به، وقال: لا بد أن أمتحنه، ففعل ووظّفه وقال: "ما زال يافعًا، لكنه أجاد تكوين نفسه".

وفي رمضان تكلّف دار الإفتاء بأدرنه طلاب المعاهد الشرعية وحفظة القرآن الكريم من المحافظات المجاورة بالإمامة، ويتعهد الأهالي بالمسكن والمطعم وشيء من المال، فإذا انقضى شهر رمضان عاد كلٌّ إلى مسجده، ويُعْرَف هذا بنظام "إمامة رمضان"، فعُيِّن الأستاذ فتح الله إمامًا في شهر رمضان في مسجد اسمه "آقْ مسجد (المسجد الأبيض)"؛ فأُعجِب المصلُّون بما رأوا في خطابته وعلمه أثناء دروس ما بعد الصلاة؛

فلما انقضى شهر رمضان ذهب بعض وجهاء الحيّ إلى الأستاذ حسين طوب، وطلبوا منه أن يساعدهم في استمرار الأستاذ فتح الله بهذا المسجد، ففعل، ويومئذ بدأت رحلة الأشجان والمعاناة، ولم تمض مدة وجيزة حتى غدا معروفًا في أدرنه كلها بوعظه ودروسه، شابّ يافع لكنّه أثّر بوقاره وأخلاقه أيَّما تأثير في مَن جلس واستمع إليه؛ نعم كان الأهالي يمدّون يد العون لأمثاله إلا أنه أبى أن يأخذ منهم شيئًا.

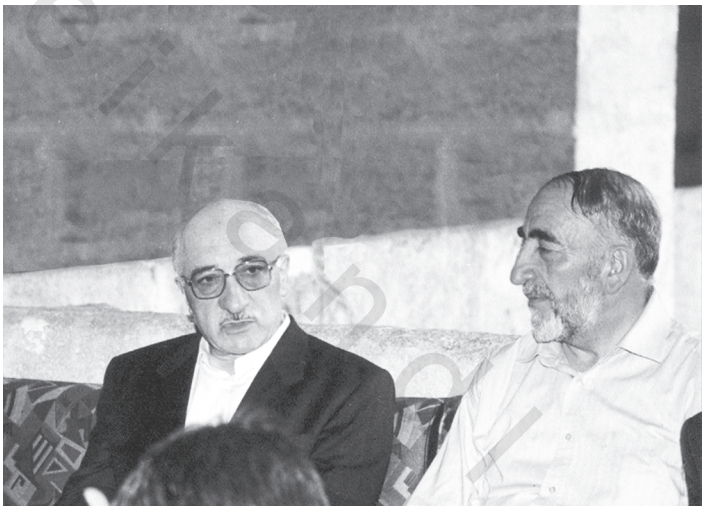

الأستاذ فتح الله والأستاذ حسين طوب في أدرنه يوم مسابقة المصارعة بقِرْقْبِنار

وفي تلك الفترة عقد امتحان الوعاظ، فسافر الأستاذ فتح الله إلى أنقرة، ومكث بها خمسة عشر يومًا، ثم عاد إلى أدرنه، فأبلغ مصطفى زَرَنْ دار الإفتاء بأدرنه بنجاحه في الامتحان؛ فتقدم الأستاذ فتح الله بطلب لوزارة الأوقاف بأنقرة، ليكون مفتي أدرنه، فرُفِضت لأنه لما يخدم العسكرية بعد، وعُين إمامًا لمسجد "الشرفات الثلاث"، وسرعان ما صاغ لنفسه عقد حبّ واحترام هناك؛ ولما كان مسجد "الشرفات الثلاث" في مركز المدينة كان يأتيه وجهاء أدرنه وبعض المسؤولين أيضًا؛ ويعلِن

الأستاذ فتح الله بدايةً عن موضوع موعظته؛ وكان في معرفته وإحاطته بتفاصيل الموضوع -في الاقتصاد أو العدالة أو الحقوق أو علم الاجتماع أو غيرِها- ما أكسبه تقديرَ المصلّين جميعًا.

استأجر منزلًا في زقاق مسدود، وذلك في فصل الصيف، فكانت النسوة يجلسن على أرصفة الزقاق من الضحى حتى جهمة الليل؛ فكان يضيق ذرْعًا بذلك عند ذهابه إلى المنزل وإيابه منه، وأبدى بعض من يوقّره من أهل الحي رغبتهم في مصاهرته؛ فغادر الحي إلى نافذة في مسجد الشرفات الثلاث، عرضها متران، وعمقها متر ونصف، فوضع بها أمتعته: كتبه، وبطانيتين، وطبقين، وكوبًا، وملعقة؛ يقول: "تجافيت عن كل ما يبعث على الكسل، فبدأت باتخاذ ما يلزم لتحقيق هدفي على أتمّ وجه".

لم يتخل الأستاذ فتح الله عن سمت حياته هذا حتى في قرّ أدرنه القارس، وزهِد في أكل ما له دَسَم، فعَكَف على العلم، وعُنِيَ بمن حوله. كانت الحياة الروحيّة في أدرنه تكاد تقفر؛ فهجر النوم واعتزل في نافذته، وراح يبني "دنياه الصغيرة".

ويذكر صديقه الأستاذ حاتم مثالًا لتربية النفس عنده، يقول: "كثيرًا ما كنت أزور الأستاذ فتح الله في مرحلة رياضة النفس؛ فلم أره يأكل، وإذا برّح بي الجوع قال: هناك بعض الطعام، كُل منه، فأدعوه لنأكل معًا، فيأبى؛ وأحيانًا كنت أقلِّده فلا آكل؛ وغالبًا ما كنت آكل ما في المِزوَد من طعام. وبينما هو في حديقة المسجد ذات يوم إذا برائحة البيض المقلي تزكم الأنف، وسرعان ما تذكر أرضروم، والبيض الذي كانت تطبخه له والدته في التنُّور، وبينا نحن على ذلك إذا بالسيدة خَيْرِيَّة -عجوز صالحة ذات غيرة على الدين، كان الأستاذ فتح الله عندها كأحد أبنائها-

قد طهت بيضًا، وقدَّمته للأستاذ فتح الله، وكان بطني يقرقِر، فانتظرت أن يدعوني لنأكل، ومضى وقت طويل ولم يفعل، فلم أتحمل فقلت: هيا نأكل هذا البيض قبل أن يبرد، فقال: كُلْ، واترك لي منه، فإني أحتاجه"، فما أكل رغم إصراري عليه، فأكلت منه؛ وأمضى الأستاذ فتح الله ثلاثة أيام يسخن فيها البيض ويشمّ رائحته ثم ينتحي جانبًا من الحديقة، ثم يردّ البيض دون أن يأكل منه لقمة، ثم عرفْتُ أنه كان يروِّض نفسه بشمّ ما تشتهيه دون أن يأكله". هذا تأويل الأستاذ حاتم، وربما أنه فعل هذا ليسلي نفسه بشيء يذكّره بوالدته.

عُرض عليه الزواج كثيرًا في أدرنه سواء من أقاربه كالأستاذ حسين طوب أو من أصدقائه، فأبى، وكم عُرِض عليه في سنوات لاحقة، فكان يأبى، ولعل تفسير هذا في قوله: "لا يعلم نيتي وما في أعماق قلبي إلا الله، فضّلت أن لا يشغل عقلي شيء سوى خدمة الدين والدعوة، ميزاني دقيق وحسّاس فربّما تضيق به النساء، وهذا أيضًا كان له أثر كبير في عزوفي عن الزواج؛ قرّرت منذ البداية أن أهب نفسي لخدمة الدّين".

حياته في الشريعة كحياة السمك في الماء، ضبطَها بميزان الشرع وآدابه؛ مثلًا: لما وصل أدرنه كان أول ما قام به التحقُّق من طريقة ذبح الحيوانات، فلما رآها مخالفة لأحكام الشرع ما أكل فيها لحمًا قطّ.

مثال آخر يكشف دقة موازينه يومئذ، يحكي الأستاذ حسين طوب أنه رآه يشتري الشمع من ماله ليضيء به نافذة المسجد التي يسكنها، ليقرأ في الليل؛ فقرر أن يتخذ له مصباحًا يضيء النافذة، وأقلّ ما في هذا أن يرفع عنه المعاناة أثناء القراءة، فأتى بالكهربائيّ، لكن الأستاذ فتح الله رفض قائلًا: إنها كهرباء المسجد، والوقف هو من يدفع، وهو لا يحل لي".

نافذة مسجد الشرفات الثلاث التي أقام بها الأستاذ فتح الله

أنهكَته ظروف الحياة الشاقّة، فضعُف ومرِض، وقضى خمسة عشر يومًا في المستشفى؛ وتضاعفت بُرحاؤه لما بلغه مرض والده؛ ففاضت مشاعره على لسانه بأشعار تحكي أشجانًا كابدها في تلك الفترة.

لقي الأستاذ فتح الله ما لقي من افتراء الحسّاد والحاقدين ومكائدهم التي حاكُوها له، عِلاوة على تدهور صحته، فكانت حفاوة الناس بوعظه وتقديرهم له، وحبّ التجار الجمّ واحترامهم البالغ، يثير حفيظة حسّاده؛ فتآمروا عليه أيام الانتخابات المحلية، واتهموه بأنّه خالف الصمت الانتخابيّ؛ فاقتحمت الشرطة المسجد وألقت القبض عليه، وفي الطريق أخذ أحد أفراد الشرطة يشتمه بقبيح الكلام، فردّ على الشرطيّ وألقمه حجرًا، فهو لا يتحمل شيئًا من الإهانة، ولا يتهاون في عزته وكرامته؛ وكان مدير الأمن "السيد رسول" يحضر مواعظه ويعرفه حقّ المعرفة، فبرّأه وأفرَج عنه؛ يقول الأستاذ فتح الله: "هذا أول اعتقال لي، فامتعضت كثيرًا، وأويت إلى نافذتي حزينًا"، كانت تلك بداية مؤامرات ما زالت تطارده؛ وكلما حصحص الحق ظهرت براءته كما في المرة الأولى وعاود حياته الخاصة مرةً أخرى.

ودافع عنه ورعاه وردَّ عنه افتراءات الحاقدين وإفكَهم مفتي أدرنه بعد انقلاب ٢٧ مايو/أيار ١٩٦٠م الأستاذ "يَشار طُوناكُور" الذي أسهمت

مواعظـه فـي تجدد الحيـاة الدينية في أدرنه؛ لِما رأى في الأسـتاذ فتح الله من علمٍ وجدّ، وراح يذكر مناقبه وعلمه في أروقة الحكومة؛ فالأستاذ يَشار هو إحدى نقاط التحول الجوهرية في حياة الأستاذ فتح الله، وكان الأستاذ فتح الله يكنّ له كلّ احترامٍ وتقدير، فكان يعظ في مسجد الشرفات الثلاث قبـل صـلاة الجمعة -كما هي العادة في مسـاجد تركيـا- ثم يدرك الصلاة في مسجد "السليمية" ليستمـع إلى خطبة الأستاذ يَشار.

إمـام ذو عشـرين ربيعًـا إلا أنّ وضوح أسـلوبه في الحوار شـهَرَه في أدرنـه، لـم يقتصر كالأئمة على الوظيفة فحسـب، بـل كان يجول ويحاور الفئات كافّة بدءًا بالمحافظ حتى رئيس الوحدة العسكرية.

شخصية فعّالة نشِطة تحمل صاحبها على فعل كلّ ما يخدم الدّين؛ شهد هجمات شنّها الإعلام على الإسلام حينئذ، فكان يقدر ما بُذِل لمواجهتها، ويساند من يواجهها ويدعمهم بما تيسّر، يقول في مذكراته عن تلك الفترة: "كنت أدّخر مالي وأشـتري به كتبًا مفيدة لأوزّعها حسبةً، فكانت تأتي أدرنه نسخة أو نسختان من مجلة "بُيوك دوغو (الشرق العظيم)"، فكنت أشتري منها لتصبح خمسًا وأوزعها؛ أما مجلة "حُر آدم (الإنسان الحُرّ)" الأسبوعيّة، فكان يأتي منها خمسة وعشرون، فبلغتُ بها أربعين؛ وهي صوت الإسلام حينئذٍ، ومثلها "بيوك دوغو" و"سبيل الرشاد"... أجالس من سأعطيه المجلة، ونشرب الشاي ثم أعطيه، فالخدمة في مناخ كهذا شاقّة جدًّا، فهذه أشياء لا عهد لأحدٍ بهـا، كنت أخفي مجلة "بيوك دوغو" بين صفحات جريدة "الجمهورية"[١٥]، وأضعهـا فـي جيبـي حتى أصل إلى مكان تسـليمها، فأسـلمها خُفيـة بعيدًا عن الأنظار، كان لا بُدّ من هذا ليستمر العمل.

(١٥) جريدة يساريّة يوميّة تركية بدأت تصدر في ٧ مايو/أيار ١٩٢٤م، وما زالَت.

في تلك الفترة كان نجيب فاضل[١٦] ينسج "نسيج الإيديولوجيا"[١٧]، وكانت كتابات "بَيامي صفا"[١٨] يلفها الغموض بالنسبة لقراء تلك الفترة، ورغم ذلك كنت أقرؤها؛ كان الإسلام هو شغلي الشاغل والعالم المثالي الذي تزدان به أحلامي، فظاهري يوحي أني في عزلة، ولكن الزوايا جعلتني منفتحًا أجيد فنّ العلاقات الاجتماعيّة حيثما حللت؛ ولمجالستي الكبار الفضل في مهارة التحدث مع الآخرين بسكينة وطمأنينة، فكنت أجالس وأحادث وأحاور الفئات كلّها، خاصّة المشايخ وكبار العلماء، فنَمت لديّ مهارة المحادثة، فكنت أبلِّغ وأنصح بسهولة ويسر أيّ شخص مهما كان مستواه الاجتماعيّ؛ وفي الوقت نفسه حالَ الحياءُ الشرقي بيني وبين الجرأة على الكبار، فكنت أجالسهم وأحاورهم وقتًا طويلًا بمنتهى الأدب، وأكاد أكون عرفت وجهاء أدرنه كلهم، ولمّا أبلُغ العشرين؛ وكنت أحاول أن أوجّه ما منحني الله من قوة روحية في الطرق الإيجابية، فكنت أجالس الناس في المقهى، فنشرب الشاي، وأحاول أن أتحدّث إليهم عن مسائل دينية".

ويروي حافظ أحمد أفندي واقعة تكشف عن تأثير أحواله وتصرفاته في الناس فضلًا عن مواعظه، يقول: حاضَرَ رجلٌ كريم في مجلس بين أناس فيهم الأستاذ فتح الله، فأنصت إليه ولم ينبس ببنت شفة، فلما انتهى الرجل قال له: أنا من تحدث اليوم، لكنك كنت أنت الواعظ الحقيقي.

---

(١٦) نجيب فاضل قيصه كُورَكْ: من أشهر المفكرين والشعراء والكُتّاب الأتراك في القرن العشرين (١٩٠٤-١٩٨٣م)، لُقب بـ"سلطان الشعراء" لطول باعِه في الشعر.

(١٧) نسيج الإيديولوجيا: كتابٌ لنجيب فاضل، عرَض فيه حياتَه الفكرية والحَرَكية.

(١٨) بَيامي صَفا: مفكّر ورِوائي وقصصيّ تركيّ (١٨٩٩- ١٩٦١م).

ورغم العقبات التي واجهته إلا أنّه استقام على نمط الحياة الذي رسمه لنفسه، وذات مرة نفدت نقوده؛ فلم يقدر أن يشتري ولو خبزًا، وبات طاويًا أيامًا، وبينما هو يتوضّأ وجد خمس ليرات على الأرض، فاشترى طعامًا يسد الرّمق، وكفَتْه حتى استلم راتبه، فزادها خمس ليرات، وتصدّق بالعشر على الفقراء. وذات مرّة صعد المنبر ليخطب العيد والجوع يعتصر أمعاءه، فأكل ملعقة عسل من قعر قنينة كانت عنده؛ ولم يكن يعرف أن العسل لا يُؤكل والمعدة فارغة، فعانى من غثيان أثناء الوعظ. رغم كل ما عاناه لم يشكُ أمره ولو مرّة، ولم يدعه ذلك لتغيير نمط حياته رغم كل المشاق الماديّة والمعنوية؛ وكأن هذا السلوك لا ينتهجه إلا أفذاذ يصنعون تاريخ الحضارة.

كان الأستاذ فتح الله غيورًا على دينه منذ شبابه؛ فعندما طُرح موضوع كتابة القرآن الكريم بالحروف اللاتينية وهو في السادسة أو السابعة عشرة، كتب مقالًا ينتقد فيه هذه الفكرة؛ فروحه مثاليّة جيّاشة حتى إنه ليقول وهو تلميذ صغير بمدرسة مسجد قُرْشُونْلو: "ليتهم وضعوا الدنيا على أناملي فأُديرَها"، كان يجتنب أمور السياسة، ولكن هذا لم يمنعه أن يعترض وتثور ثائرته عقب انقلاب ٢٧ مايو/أيار ١٩٦٠م؛ وللأستاذ يشار الفضل في تهدئته تجاه ما يستنفر طبيعته الثائرة، فلنصائحه أثر بالغ في التخفيف عنه فيما تضيق به نفسه، وكان لرسائل النور أكبر الأثر في تهدئة نفسه الثائرة.

كان لوظيفة "الإمام الملقِّن" لمحكومٍ عليهما بالإعدام في أدرنه أثرٌ بالغٌ في حياته؛ كُلِّف عام ١٩٥٩م بتلقين رجل اسمه راسم، وكان الإعدام يومئذ علانيةً؛ فكان يحاول أن يلقّنه الشهادة وبعض الدعوات،

فيرد المجرم: "سيأتي أتاتورك، وسنذهب معًا إلى البيت"؛ فالمشهد حزين، لكـنّ الناس كانوا ينظرون إليه وكأنه مهرجان أو احتفال، وهذا أيضًا جعل الأستاذ فتح الله يتقطع حزنًا.

وألغي الإعدام علانيةً، فأُعدِم الثاني -واسمه محمد- بعيدًا عن الناس، وكم تأثر الأستاذ فتح الله بالحادثة، يقول: "سألته: تتوضأ؟ فأجاب: نعم، فلما بلغ غسل رجليه خارت قواه؛ أتذكر هذا وكأنه اليوم، لم يُتِمّ الوضوء، فبدأت ألقنه الشهادة، فلا يستطيع أن يكمل، وكأنّما محيت من ذاكرته".

obeikandl.com

فترة الخدمة العسكرية:
التضييق الخارجي والتعمق الداخلي

استُدعي الأستاذ فتح الله للجيش في شهر نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٦١م، وقد أمضى في أدرنه قرابة ثلاث سنوات؛ فودّعه جمع جمٌّ يبلغ الأربعين من محبيه عند انطلاقه من "قِرْقْ أَغَاجْ" إلى المنطقة العسكرية؛ وعلى رأسهم الأستاذ يَشار، وحسين طوب، وسالم آريجي الإمام الرئيس لمسجد الشرفات الثلاث، اتجه إلى إسطنبول ثم أنقرة، ومكث فيها ٥-٦ أيام عند السيد صالح أُوزْجان، وخدَم في أنقرة في كتيبةٍ خدم بها عمه من قبل، في السرية الأولى للاتصالات بالكتيبة الأولى بمنطقة "مَماق"، لفت الأنظار بجدّه وانتظامه، فتوطدت صلته بقيادة السريّة، علاوةً على أنّ بعض معارفه في أدرنه ذو صلة بقيادته، تدرّب أربعة أشهر بقطاع اللاسلكي وعمل فيه، ورغم أنه يؤدي الخدمة العسكرية كغيره، لكنه كان يرى أنه لا يؤدي مهمته حق الأداء، فرأى أن طعام الجيش لا يحلّ له، وكذا ملابسه المجانية، فاشترى ملابس عسكريّة من أحد طلاب الكلية العسكرية.

اضطربت البنية السياسية عقب انقلاب ٢٧ مايو/أيّار ١٩٦٠م، فخطط العقيد طَلْعَت آيْدَمير لانقلاب على انقلاب ٢٧ مايو/أيار، فأشرَكَ ١٥ ألف جندي من منطقة مماق، فوجد الأستاذ فتح الله نفسه بينهم يكابد آلام تلك الفترة العصيبة؛ ولما فشل العقيد سلّم جنوده أنفسهم، وصودِر سلاحهم، وصدر أمر بمنعهم من مغادرة الكتيبة مدة شهرين، فاستغلها الأستاذ فتح الله

obeikandl.com

فـي تزكية النفس، يقول: "لك أن تطلق علـى هذه الفترة "الأربعين"[١٩]، إنها أول "أربعين" أعيشـها دون تخطيط مسـبق في الجيش... وقفت فيها نفسي على العبادة، كنت أغدو إلى المسجد مبكِّرًا في ليالي الشتاء الطويلة، فأتعبد إلى جهمة الليل، فصفا عقلي وزكت نفسـي شـيئًا ما". لقد قطـع مسـافات روحيـة مهمـة في نهاية هذه التزكية؛ وشـهد من التجليات الجليلة ما شـهِد ممـا لم يبُحْ بـه؛ ثم عاد الجنود لمهمتهم، وعُين هو في قسـم "الاتصالات السـريعة" وتعلـم هناك اسـتخدام الأجهزة اللاسـلكية، والكتابـة على الآلة الكاتبة بعشرة أصابـع.

يحكـي الأسـتاذ فتح الله عن مشـاقّ فـي الجيش لا تُنْسـى، وخاصة أوّل أربعة أشـهر بحي مماق، يقول: "عندما أتذكر الجيش أتذكر فورًا أوّل أربعة أشـهر، فلا يمكن نسـيانها؛ لم تكن السـرر كافية ، ففي اليوم الأول نمت أنا وواحد كنت أعرفه من قبل في سرير واحد، أُعطِي كلّ منّا بطّانية يتدثر بها، كنا ننام دون أن نخلـع أحذيتنا لنسـلم من التجمد في قَرِّ الشـتاء القارس؛ فإن اقتضى الأمر الماء وجدت مشقة عظيمة، لكن بدني كان قويًّا آنـذاك، فكم وكم اغتسـلت فـي أرضروم في المرحـاض، أصبّ بالكوب المياه الباردة على رأسي وأنا واقف على الثلج؛ كان الجنود يغتسلون معًا بـلا مبالاة، فكنت أرفض أن أدخـل معهم. وذات مرّة أُمِر الجنود بالتعري فـي فحـص طبّي عـام، فقـال الطبيب: اخلـع سـروالك، فقلت: "سـيدي، مـا رأى مـا بين الركبة والسـرة أحد، ولا أمي التي ولدتنـي"، فقال: اِمْضِ، فنجوت، وكان الطبيب طيّبًا".

(١٩) مصطلح صوفي معناه: أن يتفرغ الإنسـان أربعين يومًا للعبادة والذكر والدعاء مـع التزامه بقلة الأكل والنوم والكلام.

obeikandl.com

مضت فترة التدريب وكانت نحو ثمانية أشهر، وأُقرِع بين الجنود لتوزيعهم على ثُكَنِهم، فخرج نصيبه مرتين في أرضروم، فأعادوها ثالثة لئلا يكون الجندي في بلده، فكانت في مدينة "دِياربَكْر" في جنوب شرقي الأناضول، فأبى القادة أيضًا، فجاءت في إِسْكَنْدَرُون، وبدأت مرحلة مهمّة في حياته.

كان القادة هناك ألين من أنقرة، فاستراح بعض الشيء؛ عُيِّن في مركز الاتصالات، فكان يجلس وحدَه في سيارة مجهزة بأحدث التقنيات يومئذ؛ فأتاح له ذلك أن يخرج ليشتري الطعام، وأن يستمع من خلال أجهزة الاستقبال المتطوّرة إلى إذاعة القرآن الكريم التي تبث من دول عربية، وأن يعظ قبل صلاة الجمعة بملابس مدَنِيّة.

ها هو يعيش حرًّا نوعًا ما لكنه ماضٍ في تزكية النفس التي أخذ نفسَه بها في حياته كلّها، وها هو ذا يواصل حياته بدقّة ميزانه الحسّاس في أدرنه، فهزل جسمه وضعف؛ فقلّما ينام و يأكل، فتبين بالفحص مِرارًا أن حالته خطيرة، فوُضِع في المستشفى مدة، ثم مُنح إجازة للاستجمام لمدة ثلاثة أشهر؛ فاستطاع أن يزور أرضروم ليرى أسرته بعد غياب أربع سنوات، بل لم يُتَح لهم توديعه يوم أن التحق بالجيش، حتى إنّ أمّه عندما رأته سألته: أنت فتح الله؟ وراحت تعانقه؛ فما كانت أمّه لتعرفه إذ تغيّرت ملامحه في فترة مرضه، وكان فتًى فغدا رجلًا؛ ثم أذنت له شعبة أرضروم بشهر آخَر، فقضى أربعة أشهر فيها، منها شهر رمضان المبارك، فوعظ في مساجد عدة بأرضروم، وذات يوم علِم أن فيلمًا يتحدث عن عهد النبي ﷺ سيُعرض في سينما بأرضروم، فأغضبه أنّ امرأة لا وجود للدين في حياتها تمثّل دور السيدة عائشة ﵂؛ فتحدث عن هذا في الموعظة، فثار المصلون

وهاجموا السينما، فحاول أن يثنيهم عن هذا قائلًا: "لا تفعلوا، فليس لنا أن نفعل مثل هذه الأفاعيل، علينا أن نعالج الأمر بطرق أخرى مناسبة"، وباءت محاولته بالفشل؛ فانضم إليهم آخرون فصاروا جمعًا كبيرًا ومنعوا عرض الفيلم، وتفرّقوا قبل أن يحدث ما لا يُحمد عُقباه.

وعقدت في هذه الفترة ندوة عن مولانا "جلال الدين الرومي"، وحاضر فيها أساتذة الجامعة، فشارك الأستاذ فتح الله فيها، وألقى كلمة عن حبّ مولانا للنبيّ ﷺ، فأبهرهم أسلوبه وبراعته في الارتجال وإلقاء الشعر الفارسيّ وشرحه، ودَحَض زعْم من زعَم من المحاضرين بأن "مولانا" يتبنى مذهب "بانْتَيِزم".

وشارك أيضًا في فعاليّات إنشاء جمعية لمقاومة الشيوعية في أرضروم، والأولى من نوعها كانت في إزمير.

انتهت الشهور الأربعة فعاد إلى إِسْكَنْدَرُون، فوعظ بحماس بالغ، في عدّة مساجد، يرتدي جُبّته فوق ملابسه العسكرية ويُلقي الموعظة، يشخّص داء الحياة الاجتماعية بأسلوب مثير ومؤثّر.

وذات مرّة رغب إليه بعض من في الجيش أن يمدح القائد في موعظته، فمدحه بأنه "رجل قوميّ"، فلما عاد إلى وحدته العسكرية زلّت قدمه وهو يركب، فتكسّرت أضلاعه، وعدّه تنبيهًا معنويًّا له حيث ذكر في كرسي الوعظ ما هو متعلق بالأمور الدنيوية ليسترضِي فلانًا من الناس.

ثم عاود الوعظ بعد فترة قضاها في الفراش وأثارت هذه الفعاليات قلق أناس، فتحايلوا للضغط عليه، وأحرجوا أصدقاءه المساندين له في مواقف عدّة، وذات مرة خطب الجمعة -ولم يكن يتكلم عن شيء في السياسة- فلما خرج من المسجد وجد الشرطة عند خروجه يحاصرون المسجد،

وكأنهم يعتقلون قاطع طريق؛ فذهب إلى قائد الكتيبة وحيَّاه بالتحية العسكرية وسلّم نفسه؛ فأفشل خطة من يريدون تَكرار أحداث "مَنَمَنْ"[٢٠] وخيّب آمالهم الخبيثة؛ وقبيل خروجه من المسجد سمع جنديًّا يقول: اضربوا هذا الوغد؛ فغضب المصلون؛ لكنه سلّم نفسه، فلم يفعلوا أيّ شيء؛ ولا شك أنهم كانوا سيضربونه لو تردّد، فقد أعدوا خططًا تنمّ عن حَنَقِهم ونواياهم الخبيثة.

جامع إسْكَنْدَرُون

قُبض عليه وسُجِن، وكان رأي بعض الضبّاط فيه حميدًا فما كفّوا عن الحديث عنه، وفيهم نقيب مشهور بسُكره، حتى إنّه كان يستولي

(٢٠) واقعة "مَنَمَنْ": حدثت في مقاطعة مَنَمَنْ بإزمير في ٢٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٠م، وهي اسم لسلسلة من أحداث خُطّط لها لإقحام المتدينين في المآزق، بدأت بمقتل ضابط احتياطي اسمه مصطفى فهمي قُبيلاي أثناء تأديته للخدمة العسكرية في مَنَمَنْ على يد مجموعة من مدمني المخدّرات تحت اسم الشريعة؛ فسُجن كثيرون إثر هذه الأحداث، وأُعدم آخرون.

على راتب الأستاذ فتح الله ليشتري الخمر، قال عنه أثناء المحاكمة: "فتح الله هو وحدَه المنضبط ويمتاز بأخلاقه العالية في الفِرقة، قلّ أن نرى مثله"؛ فكل قادته في الجيش يثنون عليه في خلقه ووفائه وحبه لوطنه اللهم إلا من أعمى الحقد عيونهم، فتأثرت هيئة المحكمة بهذه الشهادات؛ فسجن فترة قصيرة مع عقوبة تأديبيّة يسيرة، ثم أطلق سراحه؛ واستغل سجنه في قراءة كتاب "صفحات" للشاعر التركي المشهور محمد عاكف أَرْصُوي، وحفظ معظمه، وخلال فترة سجنه القصيرة تحسّن سلوك بعض أصدقائه المسجونين معه؛ وقد أذاعت جريدة "الاستقلال الجديد" خبرَ سجنه وإطلاق سراحه بعنوان "فتح الله حفيد محمد الفاتح".

وكانت طبيعته النشطة تأبى أن تبقى دون عمل يستهدف مثاليته التي جعلت منه إنسانًا فعَّالًا نشِطًا على الدوام ولو في الجيش ذي النظام المحكم، فيوم أن وصل إسكندرون كان عدد المصلين في الوحدات لا يُذْكَر، لكن سرعان ما ازداد عددهم بمهارته وصدقه في النصيحة والموعظة، وكانت في الكتيبة قاعة تُستخدم لعروض سينمائية، فصارت مسجدًا تُصلَّى فيه الجمعة؛ كلّ هذا والحاقدون ما زالوا يتحينون فرصةً لاعتقاله، وليُفسِدوا عليه أمره، حتى إن والده لما زاره أُلقي القبض عليه لحضوره جلسة دينية.

وتُظهر مواعظه ومقالاته أنّه يقدر الخِدمة العسكرية قدْرها، وكلما جاءت مناسبة تحدّث عن تقدير الأتراك للخدمة العسكرية، فهي ليست أمرًا صعبًا ولا شاقًّا عليه إلا أن أعداء المثاليات والقيم التي وقف لها حياته فرضوا ظروفًا تسبّبت له في مشكلات وأزمات مختلفة يومئذ، فهؤلاء هم من جعلوا الخدمة العسكريّة شاقةً ومرهقةً؛ ولما أنهى مدة خدمته ورحل

عن إسكندرون عرض عليه صاحب شركة شحن العملَ مديرًا للشركة، فرفض ورجع إلى أرضروم.

ولأرضروم منزلة متميزة في حياته الروحيّة، لكنه آثَر الرحيل عنها بعد عودته رغم حبّه لها وإصرارِ أسرته وخاصّة أمّه على البقاء معهم؛ فالهجرة من مسقط الرأس في سبيل مثاليّاته من أمهات مبادئه في الحياة إيمانًا منه بالهجرة المقدسة التي طالما حدّث الناس عنها؛ فقرر الرحيل عن أرضروم، حتى وإن لم يرجع إلى أدرنه فلا شك أنه سيذهب إلى مكان آخر يخدُم فيه الإسلام.

obeikandl.com

العودة إلى أدرنه وفترة "قِرْقْلَارْ أَلِي": الفسيلة تشقّ الأرض

لأدرنه منزلة متميزة وأهميّة خاصّة في حياة الأستاذ فتح الله، لا سيما مسجد الشرفات الثلاث، ففيه نسَج شَرْنقة حياته الروحيّة والدعويّة؛ ويتحدّث عن سبب عودته إلى أدرنه ومشاعره تُجاه مسجد الشرفات الثلاث، فيقول: "مما حملني على العودة إلى أدرنه حبي الجمّ لمسجد الشرفات الثلاث الذي بناه "المعماري خير الدين"، لعلي أعمل فيه مرّة أخرى، فهو أحب إليّ من مسجد السليمية، ولعلَّ هذه الرابطة والولَه لأني عملت فيه من قبل، وضمّني إليه وآواني ثلاث سنوات، أو لأمورٍ لم أفهمها يومئذ، فمسجد الشرفات الثلاث مهد لطفرة رائعة في الهندسة المعمارية ولولاه لما كان مسجد السليمية أعظم مفاخر التاريخ التركيّ؛ ومصيره كمصير العملاق المهموم بأمته الأستاذ بديع الزمان سعيد النُورْسي الذي مهّد لفتحٍ إسلاميّ عظيم في الأناضول؛ وبين هذا المسجد والسلطان العثماني مراد الثاني توحُّد وتكامل؛ وهذا هو ما حبَّب إليّ مسجد الشرفات الثلاث بلا تشوف مني ولا إرادة".

ودّ لو أنه يعود إمامًا لمسجد الشرفات الثلاث، إلا أنّه عُيِّن معلِّمًا في مركز لتعليم القرآن الكريم، ولم يتوقف عن الوعظ، فنشرت الصحف خبر تعيينه، وادّعت أنّ تعيينه هذا ليس مناسبًا؛ وكانت الصحف والمجلات قد تناولت محاكمته أثناء الخدمة العسكرية، فذاع أمره في تركيا كلّها، خاصَّةً أنَّ بعض التيارات راحت تتعقبه خطوةً خطوة.

obeikandl.com

المنظر الخارجي لمسجد الشرفات الثلاث

وبينما كان يعاني من الملاحقة والتضييق الأمنيّ، كان يلقى مثل ذلك من مسؤولين في مركز تعليم القرآن فيه تخالف أفكارهم أفكاره واعترضوا على تعيينه؛ وانقشعت تلك الفترة العصيبة ببداية أخرى للأستاذ فتح الله؛ مرِض إمام "مسجد دار الحديث" فعُيّنَ هو إمامًا مؤقتًا، واتخذ من ركن في المسجد مسكنًا له، وسرعان ما صيّره مدرسة لتعليم الطلبة، فغدا أول أرضٍ طيبة تنثر فيها بذور خدمة الطلبة؛ وبهذا الصّدد يلفت الأستاذ حسين طوب في مذكراته الأنظار، فيقول: "كانت وزارة الأوقاف تقتطع بعض راتب الإمام السابق لغيابه عن وظيفته، وتعطيه للأستاذ فتح الله الذي قام مقامه، لكنه لم يكن يتصرف فيه، بل كان يردّه بتمامه كلّ شهر للإمام السابق، ولما سُئل قال: أستاذي شيخ مريض، فهو أحوج إليه مني".

في تلك الفترة عُيّن صديقه الأستاذ الدكتور "سُعاد يِلْدِرِم" مفتيًا لأدرنه، فاستأجرا منزلًا، كانت دقته وحسّه المرهف في حياته هو هو، ففي مذكرات الأستاذ سعاد يِلْدِرِم ما يكشف عن هذا التميز بوضوح، يقول: "كلّ أحواله تنبئك أنه شخص متميز، منظّم، أنيق، يتحرى الحلال في مطعمه ومشربه، منزلُه غاية في النظافة والتنظيم، يهتمّ به اهتمامه بمنظره وملبسه؛ ولو قلتُ: لم أره مرتديًا حلة النوم قط طيلة ستة أشهر قضيناها معًا، لكفى في وصف شخصيّته الرائعة وعاداته الحسنة".

واصل المواعظ ومدارسة الكتب رغم صرامة الرقابة حينئذ وتناوب الشرطة على المسجد. ورأى واحد ممن يحضر حلقة الدرس رؤيا ألهبت أشواقهم، رأى أم المؤمنين خديجة ﵂ تشير إلى الخمسة المتحلّقين في الدرس وتسأل المصطفى ﷺ: "يا رسول الله، هؤلاء يسألون: هل أنت عنهم راض؟"، فقال ﷺ: "نعم، أنا راضٍ عنهم عامَّة... وعن أحدهم خاصَّة... وعن أحدهم خاصّة"؛ وفعلَت هذه الرؤيا فيهم الأفاعيل؛ فاستمرت الدروس رغم كلّ محاولات القمع والمنع، وسرعان ما ناف عددهم على ثلاثين.

جاء العيد فقام الأستاذ فتح الله بطبع بطاقة تهنئة، عليها حديث شريف يحض على تمسك المسلمين بدينهم مهما بلغت المشقة والبلاء الذي يتعرضون له[٢١]؛ فوقعت جلَبة كبيرة، واقتحمت الشرطة المسجد، فاعتقلوه، وَسِيق إلى التحقيق مرّة أخرى، وكانت أسئلتهم مأساة ومهزلة، مثلًا: ما كل هذا الإخلاص في المواعظ؟! وما السبب في تحمل كل المشاق في سبيل الدين؟ وما الذي يبكيك وأنت تعظ؟ بل سألوه: لماذا تأمر النساء وأنت تعظهنّ يوم الثلاثاء بقولك: "لا ترفعن إليّ أبصاركن"؟! كادوا له ليوقعوا به أثناء التحقيق، وشهد ضدّه محامٍ كان يصلي معه التراويح ودعاه غير مرّة إلى الإفطار عنده، لكنه أنكر أنه يعرف الأستاذ فتح الله، فطلب الأستاذ فتح الله الدفاع عن نفسه، وقال: "سأعقّب على السيد المحامي، ثم قيّموا الموقف بناءً على ذلك؛ هذا الرجل صلى معي

(٢١) عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا فَقَالَ ﷺ "قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ". (صحيح البخاري، الإكراه،١)

التراويح سنوات، والمئات يشهدون، ودعاني أنا والأستاذ سليم آرِيجي للإفطار أكثر من مرة، وجلسنا في أماكن لا أحصيها وشربنا الشاي معًا؛ فإذا كان صلى التراويح خلف رجل، وأكل وشرب معه على مائدة واحدة، ثم يأتي ليقول: "لا أعرفه"، فيمكنكم أن تقيسوا باقي كلامه على هذا"؛ وكان لشهادة رِفعت بك في الدروس والمواعظ وقعٌ كبير، إذ كان من قبل ضالًّا، ومثارَ إزعاج للناس جميعًا، قال: "السادة القضاة أنتم أعلم بما كنت عليه، أيام كنت أصيح في "قلعه اِيتشي"، فيفزعون جميعًا، هكذا كنت، وأنا الآن كما ترون، تغيّر سلوكي بفضل هؤلاء، كنت أتردّد عليهم، فوجدت ضالّتي وعرفت الحق فاهتديت بعد الضلال".

كان محافظ أدرنه يومئذ يفعل ما بوسعه لعرقلة حَراك الأستاذ فتح الله؛ فألغى له رخصة الوعظ، ومنعه من التدريس في مراكز تحفيظ القرآن، وهمّ بحبسه عشر سنوات، ووضعه تحت المراقبة الدائمة، فتحولت أدرنه إلى "كابوس" كما يقول الأستاذ فتح الله، لقد ضيقوا عليه الخناق، فذهب إلى أنقرة في ٣١ تموز/يوليه ١٩٦٥م يلتمس النقل إلى محافظة أخرى، فنُقِل إلى محافظة "قِرْقْلَارْ أَلِي". فلقِي ما لقي في أدرنه، ورغم ذلك كان يُعنَى بالناس فينفق راتبه كلّه عليهم بل وقتَه أيضًا؛ ليقيهم فتنة التنصل من التدين باسم المدنيّة.

وهذا مؤذن مسجد السليمية خمسة وثلاثين عامًا السيد "نادي أَرْصُوي" سكن مع الأستاذ فتح الله في أدرنه، فوصف شخصيته وحياته المتميزة في مذكراته قائلًا: "دقيق مرهف الحسّ، أظنني تعلمت النظام وكيّ الملابس منه. فملابسه نظيفة أنيقة، يعتني بمظهره بين الناس، ولا يلبس ما ليس بمكوي وما كان سيّئَ المنظر، عنده بنطال رماديّ،

يغسله جيّدًا كلّ يومين لعله تقذّر وهو ماشٍ في الشارع أو أثناء قضاء الحاجة مع أنّه يشمّر عن ساقيه عند قضاء الحاجة؛ لا يملك مكواة، فيضع البنطال تحت فراشه ليغدو كأنّه مكويّ -وأنا أعجب لهذه الحال وأحزن- فإذا لبسه بدا أنّه كذلك فعلًا، ويظلّ كذلك، ولا أدري أكان ذلك من جودته أم من نوع قماشه؟ كنت أراه دائمًا منظمًا، أنيقًا، نظيفًا؛ وكأنّي تطبعت بمثل طبعه في حياته المنظمة ومظهره الحسن". فهذا يكشف عن أن دقته وحسّه المرهف في أيام دراسته ما زالا على حالهما رغم ما هو فيه، ويُظهر شمائل صارت له خلقًا من: نظافة ونظام ودقة وأناقة.

ويقول السيد نادي أرصوي: "منه تعلمت الأدب"، ويكشف في مذكراته عن أدب الأستاذ فتح الله وحسه المرهف واحترامه للصغار ولأترابه ناهيك عن الكبير، يقول: "سكنّا في منزل من غرفتين، إحداهما للدراسة والأخرى للنوم، فرأينا أن ننام في غرفة واحدة، وكان في الغرفة سرير معدني، تركته له وفرشت على الأرض؛ فلما تأخّر عن النوم قلت له: أستاذي أتدري كم الساعة الآن؟ حان وقت النوم، نم أنت على السرير وأنا أنام على الأرض، فأبى إلا النوم على الأرض؛ فلما تدثّر باللحاف، كنت جالسًا على طرف السرير، فأرق وتقلب يمينًا ويسارًا، فنظرت فإذا وجهه أحمر وعروق جبهته تكاد تنفجر، ففهمت الأمر، فهو يستحيي أن ينام وأنا في الغرفة، فقلت: لحظة من فضلك أستاذي، تفضل، نم على السرير، وأخذت الفراش واللحاف إلى الغرفة الأخرى وتركته وحده، وقلت: إن شاء الله سينام ويستريح".

ولما نزل في قِرْقَلَارْ أَلِي استأجر منزلًا، واقترض ليفرشه بسجادتين، فهما كلّ ما يملك، وكان يدفع أجرته وأجرة منازل الطلاب في أدرنه؛

فعـلاوةً علـى وظيفته كان يتردد على أدرنه عدة مرات كل أسـبوع؛ ليتفقد طلابـه فيهـا؛ ولـم تكن تحقيقـات أدرنه قد انتهـت، فلم يَرْعَـوِ الحاقدون عن ملاحقته والتربص به، فاسـتهدفته الصحافة المحليّة بمقالاتها، وحُقِّق معـه فـي خطبة جمعة ألقاها في قِرْقْلَارْ أَلِي، فلم يثبت ما يُدينه، وسـرعان ما أخذ البراءة؛ ورغم كلّ ما كان لم تخبُ جَذوة فعالياته ونشـاطه؛ يقول: "نظّمنا أنشطة عدّة، ففي منزلنا الصغير الذي يشبه عش البلبل كنا نتدارس كل ليلة، ويأتينا الناس من كل الجماعات، فكان بيننا تآلف وتناغم طيب"؛ وعقب مؤتمر دعا إليه الشـاعرَ التركي المشهور نجيب فاضل وجد فرصة للتحـدث إليـه طويلًا، فأظهر نجيب فاضل اهتمامًـا بالغًا به، وكتب بعدئذ عدة مقالات يقرِّظ فيها رسائل النور.

obeikandl.com

مرحلة إزمير:
وأزهرت الفسيلة

أخذ الأستاذ فتح الله إجازة لزيارة مدنٍ أخرى في الفترة التي كان فيها في قِرْقَلَارْ أَلِي، كانت الإجازة عشرين يومًا، إلا أنها استمرت أربعين، وفي طريق عودته مرّ بأنقرة وطلب من الأستاذ يَشار طُوناكُور مساعد رئيس الشؤون الدينية إجازة عشرين يومًا أُخرى، لكنه أوعز إلى الأستاذ فتح الله أن يستبدل به طلبًا يبيّن فيه أنه يرغب بالتعيين في إزمير، فاعتذر الأستاذ فتح الله عن تقديم مثل هذا الطلب، إلا أنّه ألحّ عليه وأوعز إلى أحدهم أن يكتب الطلب، وحمله على التوقيع مستغلًّا احترامه له.

ولما غادر الأستاذ يَشار طُوناكُور من إزمير إلى أنقرة قال وهو يودّع محبّيه في إزمير: "سأرسل لكم شخصًا وستنسونني"؛ فصدر قرار تعيين الأستاذ فتح الله في إزمير بتاريخ ١١ آذار/مارس ١٩٦٦م، وودَّعه جمع غفير من محبّيه في قِرْقَلَارْ أَلي، وبدأ العمل مديرًا في سكن طلاب ثانوية الأئمة والخطباء "كَسْتانه بَزارِي"، وكان السكن الطلابي يعاني من الفوضى؛ فاضطُرّ بادئ الأمر إلى مواصلة العمل ليل نهار في إدارة السكن فلم يكن ينام سوى ساعة أو ساعتين أملًا في عودة الانضباط إلى السكن؛ يحكي الأستاذ فتح الله عن أيامه الأولى التي قضاها في كستانه بزاري قائلًا: "بناءً على تقييمي المبدئي اقتنعت بأنّه من الضروري ملازمة الطلاب بشكلٍ دائم، فاقتضى هذا منّي أن أصل الليل بالنهار فلا أنام، فحالة الطلاب عمومًا تقتضي ذلك؛ فهزُلَ بدني كثيرًا إذ قلَّما أتناول الطعام، ورغم ذلك كنت أكتفي بنوم الساعة أو الساعتين في اليوم، وأحيانًا أصل ليلي بنهاري

دون أن أنـام، وبينما أشـرف على الطلاب وهم نائمـون كنت أتجول عدّة مـرات فـي الحمّامات والغرف، وإذ كنت أعتنـي بالطلاب عن كَثَب كنت أعمل على إصلاح كلّ ما أراه مخلًّا بالنظام".

وضـاق بعضهـم ذرْعًـا باهتمـام الأسـتاذ فتـح الله بالانضبـاط عامَّة وبعنايتـه بالطلاب خاصَّة؛ فلجـؤوا إلى حِيَل عدَّة، وحاولوا زعزعة مكانته عنـد الطـلاب؛ فأصبح انضباط السـكن أمرًا صعبًا إلى حدٍّ ما في الأشـهر الأولـى، وأظهر بعضهم سـلوكًا معاديًا لدَماثة الأسـتاذ فتـح الله، فاجتمـع رئيس الجمعيّة السيد "علي رضا كُوَنْ" بهؤلاء الأشخاص وحذَّرَهم بقوله: "هذا الأسـتاذ لا يأخذ من السـكن شـيئًا ولو لقمة، فلو بدر منكم سـلوك يضايقه، طردتكم جميعًا".

جامع كَسْتانه بَزاري الذي عمل فيه الأستاذ فتح الله كولن واعظًا، والسكن الطلابي الذي عمل فيه مديرًا بين ١٩٦٦-١٩٧٠م

وأخـذ أمناء الوقف والطلاب كذلك يَقْدُرون الأسـتاذ فتح الله قَدْرَه؛ يذكر خليل مَزِيك -وهو من أوائل تلامذة الأسـتاذ ورابـع أربعة أرسـلهم

عقب وصوله إزمير لمتابعة الخِدمة التي بدأها في أدرنه من قبل- تودُّدَ الطلاب للأستاذ ورأيهم فيه وكذلك مواقفه معه بقوله: "قدمت إلى كستانه بزاري في عام ١٩٦٥م، وجاء الأستاذ فتح الله في صيف ١٩٦٦م، كان الطلاب جميعًا ينظرون إلى الأستاذ فتح الله نظرة ريب، كان شابًّا يومئذ إلا أنّه كان يبدو وكأنّه شيخ كبير مهيب وقور رزين.

قال لي إبراهيم أفندي إمام جامع كستانه بزاري: "أشعر بشيء ما نحو هذا الأستاذ الجديد، ووصلني خطاب يوصِي به"، يعني الخطاب الذي أرسله الأستاذ يَشار طُوناكُور، ولما لاحظ الأستاذ إبراهيم جوهر الأستاذ فتح الله مما قرأه في الخطاب وما رآه من ورعه، بدأ يوصينا به ويقرّبنا إليه شيئًا فشيئًا، وكنّا يومئذ صغارًا؛ فلم ندرك أهمية الأمر، ولم نُعْنَ به كثيرًا، لكن ما إن بدأ الأستاذ فتح الله دروسه في التزكية حتى بدأنا نحبّه ونَقْدُره قَدْره؛ كان الأستاذ فتح الله يتناول مواضيع عِدّة، ويطيّبها بعبق من حياة الصحابة، فحياتهم محور أساس ومضرِب المثل في أحاديثه؛ وكان -وهو يسرد الأحداث- يتأثَّر فيَبكي ويُبكي مَن حولَه، وسرعان ما ألِفه الطلاب وأمناء الوقف أيضًا، بل إنّ الأساتذة الآخرين الأكبر منه سنًّا ممن سبقوه إلى كستانه بزاري بدؤوا في تقديره، ثم ما لبث أن أصبح شخصيَّة مرموقة في إزمير.

في شهر رمضان كنت أصلي التراويح بختمة في كستانه بزاري، وكان الأستاذ فتح الله يعظ في مساجد شتَّى قبيل صلاة التراويح، فكنا نتناول وجبات خفيفة، فتكفيه لُقيمات مما تيسّر على الإفطار، كان يشتري الجبن واليوسفيّ، وكنَّا نُحْضِر الخبز من سكن الطلاب، لنفطِر معًا، كان الأستاذ فتح الله لا يتناول من طعام السّكن، حتى إنه كان يدفع ثمن الخبز، وثمن وجبات من يأتيه زائرًا".

بعد زُهاء ستة أشهر من شروع الأستاذ فتح الله في العمل بُني له كوخ في فناء السكن، مِتْران في مترين، لا شيء فيه ولو ماءً، وأصبح هذا الكوخ أرضًا طيّبة نثَر فيها بذورَ أحلامٍ تراءت له وهو يدرُس في مدرسة قُورْشُونْلو، وتمرّ السّنون ويحكي الأستاذ عن هذا الكوخ وهو يَذكره بشوق في وعظه وحواراته: "كنت أحبّ كوخي كثيرًا رغم أنّه كان صغيرًا، فلو مددت قدمَيّ للامستا جدرانه، ولم يكن به حمَّام، فكنت أغسل يدَيّ من مياه البرميل خارج الكوخ، لكن هذه الغرفة الصغيرة كانت من الأماكن التي تؤنِسني في خدمة الإسلام بشكل كبير، مكان متواضع بسيط، إلا أنّه كان منطلَقًا لخدمات كثيرة ستكون فيما بعد، وكان كمورد الماء يعج بالنّاس على الدّوام".

وعِلاوةً على عناية الأستاذ فتح الله بالطلاب عن كَثَب، فإنه كان يُلقي مواعظه في أماكن شتَّى بمنطقتي بحر إيجة والبحر الأبيض المتوسط وليس في إزمير فحسب، وسُجِّلَت هذه الدروس ووزِّعت على كثيرين رغم أنه لم يحبِّذْ ذلك، يروي جاهد أردوغان -وقد بذل جهدًا مشكورًا في تسجيل الدروس- ملاحظاته الأولى حول الأستاذ وفترة الوعظ قائلًا: "اضطرِرت في عام ١٩٦٥م أن أترك حِرفتي، وكان لديّ مصنع للملح، لكنني كنت أرى يومئذ أنَّ تسجيل دروس العلماء المشهورين أمثال الأستاذ طاهر بُيُوكْ كُورُكْجو ويَشار طُوناكُور لتوزيعها على المناطق المجاورة يُعدّ خِدمة للإسلام، وكان وعظ الأستاذ يشار خاصة يؤثِّر فيّ أيَّما تأثير؛ فبذلت ما في وسعي لنشر مواعظه في المناطق المجاورة؛ وذات يوم صدر قرار بتعيين الأستاذ يشار في أنقرة مساعدًا لرئيس الشؤون الدينية، فطلب أعيان إزمير إلى الأستاذ يشار أن يسعى لإيقاف هذا التعيين الجديد، واجتمعوا

عنـده ليتقدموا بطلبهم هذا، وكنت معهم يومئذ، فقال لنا: "لا تحزنوا على فِراقي، فلسـوف أرسل إليكم مَن تحبونه أكثر مني"، ولا ريب أنهم جميعًا كانوا يعدّون هذا منه مواساة لهم، وأنّ شيئًا من هذا لن يحدث.

رحل الأسـتاذ يشـار، وبِتْنَا ننتظر الأسـتاذ الجديد بشـغَف، ولم أكن لأصدّق أنه سـيكون كما قال الأسـتاذ يشـار؛ فأنا أعرف كلّ مشـايخ هذا العصـر في بلادنـا، وتدور عجلة الزمـان ويأتي الأسـتاذ الجديد، فذهبت لأسـتمـع إليـه، وقطعت أنَّـه لا داعي لإحضار المسـجِّل، إلا أن النّدم كاد يأكلني وأنا أسـمـع موعظته، وكنت أردِّد في نفسـي: ليتني سجّلْت، انتهى الدَّرس وغدوتُ مبهورًا؛ لقد كان وعظًا مؤثِّرًا ما سمعتُ مثلَه قطّ، فعزمت مِـن فـوري علـى أن لا أغادر صغيـرةً ولا كبيرة من مواعظه إلا سـجّلتُها، والحمـد لله الـذي هداني لهذا، فأصبَحَت تلكم الوظيفة شـغلي الشـاغل، ودأبـت عليهـا -بفضـل الله- إلـى اليوم، وعسـى أن يدوم فضـل الله عليّ ما دمت حيًّا، فيا ربِّ وفِّقني ولا تقطـع سَيْبَك عنِّي[٢٢].

كان الأسـتاذ أحمـد فَيـزي ﷺ لا يسـتكثر من الوعـاظ، ولا يُعجبه أمرهم، وما استطعت أن أحمِله على سماع أحدٍ منهم، فهو من أهل العلم أصـلًا؛ وذات يـوم قابلتـه وأنا في طريقـي إلى الموعظـة، وأظنّ أن ذلك كان في الأسـبوع الثالث من وصول الأسـتاذ فتح الله إلى إزمير، فسألني: إلـى أين؟ فقلت: إلـى الموعظة، إنّه واعظ ليس له نظير؛ هلمَّ معي، فأبى، فآليـتُ عليـه -وكان يحبّني كثيرًا- فلبّى دعوتـي وحضرنا معًا؛ فلما انتهى الوعظ وصلَّينا الجمعة بدأ الناس بالخروج من المسجد، فشرعتُ أجمـع

(٢٢) توفي جاهد أردوغان في ١٠ يونيهُ/حزيران ١٩٩١م؛ واسـتجاب الله دعاءه فظلّ ينشـرُ مواعظ الأستاذ فتح الله حتى الوفاة، رحمه الله رحمة واسعة.

أغراضي لنخرج، وكان بين الأستاذ فتح الله والأستاذ أحمد فيزي عدّة صفوف، فلما نهض الأستاذ فتح الله هبَّ هو أيضًا وتوجّه إليه مسرِعًا وتصافحا، لا أدري ما دار بينهما، فإن كان هناك ما أعلمه فهو أن الأستاذ أحمد فيزي اغتبط أيّما غبطة بحضوره الموعظة؛ فما إن انتهينا حتى سارّني قائلًا: "أصبْتَ، إنّه واعظ ليس له نظير"، قلت له هذا من قبل فلم يقتنع، والآن شاطرني الرّأي.

لم يكن الأستاذ فتح الله يرضى أن تُسجَّل مواعظه قطّ، لكننا لم نعبأ بذلك، ونجحنا في تسجيل الدروس، فالإمام الغزالي يقول: "أحيانًا تكون الموافقة قبيحة لا ينبغي أن تقع بل الأدب المخالفة ما أمكن"[٢٣]، فسلكنا نحن أيضًا هذا المسلك[٢٤].

كان للأستاذ فتح الله برنامج مكثَّف، فهو في عملٍ دؤوب ليل نهار؛ يحكي بكلماته هذه كيف كان يقضي يومه يقول: "كنت أعظ في أكثر من مكان -مكانين أو ثلاثة- في إزمير، وفي الوقت نفسِه لا آلو في الحضور إلى الأماكن التي تطلب مني موعظة، كنت أعِظُ كلّ جمعة في جامع كستانه بزاري، أما المواعظ الأخرى فأجعلها ما استطعت يومَي

(٢٣) إحياء علوم الدين: ٥٦/٢. وسياق المقولة (كان علي ﷺ يضجر من كثرة تطليق الحسن، فكان يعتذر منه على المنبر ويقول في خطبته: إن حسنًا مطلاقٌ؛ فلا تُنكحوه، حتى قام رجل من همدان فقال: والله يا أمير المؤمنين لننكحنّه ما شاء، فإن أحبّ أمسك، وإن شاء ترك، فسَرَّ ذلك عليًّا، وقال: لو كنتُ بوّابًا على باب جنّة ... لقلت لهمدان ادخلي بسلام، وهذا تنبيه على أن من طَعَن في حبيبه من أهلٍ وولدٍ بنوع حياء، فلا ينبغي أن يوافق عليه، فهذه الموافقة قبيحة بل الأدب المخالفة ما أمكن).

(٢٤) يُحكى أن الأستاذ فتح الله عاتبه ذات يوم بسبب تسجيله المواعظ، لكن السيد جاهد رد عتاب الأستاذ بأسلوب يحاكي العتاب أيضًا قائلًا: "لا أسجّل المواعظ لأجلك أنت، ولكنني أسجّلها ليستفيد الناس بها، هذه مهمتي التي تهمني، فلتهمك مهمتك!" فلم يستطع الأستاذ فتح الله أن يجيب، فاستمر هو في مهمته إلى آخر عمره ﷺ.

السبت والأحد، فالحمد لله أنّي كنتُ أُطيق ذلك؛ مثلًا كنت أذهب يوم السبت لأعظ في أحد الأماكن، فيستغرق طريقي الليل كلّه، وفي اليوم التالي أعظ في مكان آخر، وأقضي المساء في الطريق بلا فتور؛ ولم يكن شيء من هذا ليشغلني عن دروس الطلبة في الصباح، فكنت أُدرِك دروس الطلاب على وقتها". فلو تأمّلنا رِحلاته هذه في المواصلات العامّة في ذلك الحين، لأدركنا شيئًا من المعاناة التي كان الأستاذ يتكبدها.

ورغم أن الأستاذ فتح الله كان يهدف من مواعظه ومحاوراته إلى الوصول للطبقة العريضة من الناس؛ إلا أنّه كان يرفض بَتَاتًا أن ينسب إلى شخصه ما يبديه الناس من شغَف بالموعظة، وكم كان يغضب عندما يصرف الناس اهتمامهم لشخصه بدلًا من الحقائق التي يتكلم حولها، وكان يتجمَّل بالتواضع -إحدى خصاله المميزة لشخصيته- وتواضعه يظهر عند اهتمام الناس بمواعظه.

وللسيد "مُحرّم قَلْيُونْجو" ذكرى يحسن ذكرها مثالًا على هذا، يقول: "ذات يوم ذهب الأستاذ فتح الله ليَعِظ النّاس في مقاطعة "بَرْصا" فذهبت معه بالحافلة، فلما وصلنا وجدنا الناس ينتظرون، فالموعظة بعد العصر أو المغرب، وبينما كنَّا ننزل من الحافلة إذ سمعنا نداءً من مكبّرات الصوت بالبلدية: "انتبهوا جيّدًا فاليوم سيعظنا الواعظ المشهور الأستاذ فتح الله كولن"، إذا بالأستاذ فتح الله تحيّن الفرصة ليتسلل من بين الزحام، وركب من فوره سيارة تنادي: إزمير.. إزمير..، ولحِقنا به بصعوبة في وسط هذا الزحام، ولم نعرف السبب؛ وقد علمنا بعدُ أنّه غضب كثيرًا عندما سمع صوت مكبّرات الصوت، فغادر المكان، ولم يعظ فيه ذلك اليوم.

ومثل هذا وقع في مدينة بُورْصة أيضًا، ففي إحدى المحاضرات تعالَت أصوات التصفيق عندما بدأ الأستاذ فتح الله بالحديث، فأشار إليهم ألا يفعلوا، إلا أنهم فعلوها ثانية، فحملق الأستاذ كالعقاب هذه المرة وأكمل حديثه، فلما تكرر الأمر قال: "السلام عليكم"، وغادر المكان، وكانت المحاضرة في سينما، ويحضرها جمع جمٌّ من الناس".

نعم، إنّ مواعظ الأستاذ فتح الله بالغة التأثير، لكن لا يمكن أن نختزل وصفَها ببيانه المفلِق فحسب، فعِلاوة على هذا تلقاك مُعاناته قبل أن يتفوّه بأيّة كلمة، فقبيل الموعظة بيوم على الأقلّ يتفاعل مع موعظته في جيشانٍ هائل؛ لذا كان يفيض إخلاصًا وصدقًا في وعظه للسامعين، ولا ينِي في محاسبته نفسَه طَوال الموعظة، ولا يقول ما لا يفعل، وميزانه في هذا الأمر حسّاس جدًّا، يقول: "لو تثاءبتُ أثناء الصلاة في الليل، لقضيت شهرًا لا أتكلّم فيه بتاتًا عن الصلاة أمام عُمَّار المسجد"؛ إن هذا ليشير إلى محاسبته العليّة ونظامه الداخلي العالي.

كان الأستاذ فتح الله يُعنَى بشؤون الطلبة عن كَثَب، رغم برنامجه المكثَّف، وبلغ عدد من يُولِيهم عنايةً خاصَّة سبعين طالبًا؛ وقد أينعت دروسه بتأثيرها فيهم سعادةً وأملًا في ربوع قلبه.

ويحكي الأستاذ نكتة لأحد طلابه في هذه الفترة تشير إلى مدى تأثير دروسه فيهم، يقول: "إن كانت أعينُ الطلاب في درس الأخلاق لَتفيض من الدَّمع، وذات ليلة كنت أتجول في غرف النوم، فرأيت خليل مَزِيك قد ربط نفسَه بأعلى السرير المزدوج، فسألته عن صنيعِهِ، فقال: "فكرت فيما قلْتَه بالأمس، فربطت نفسي لئلا يغلِبَني النوم".

مضَت سنتانِ على وصوله إلى إزمير؛ فازداد عدد الطلاب كثيرًا، وبات الاهتمام بهم في فترة الصيف ضرورة؛ فقام بتنظيم دورات تأهيل في مخيّمات صيفية، فواجهته عقبة التمويل، حقًّا إنّها معضِلة، فقصَد أنقرة يلتمس مِن أهل الخير الذين يعرفهم مَن يموّل حاجات المخيم لا سيما الخيام، فنهض هؤلاء بإنشاء أول مخيم، فالتحق به سبعون طالبًا؛ وما زال العدد يزداد في الأعوام التالية، حتى صار الطلبة في السنة الثالثة يتناوبون على المخيم لكثرتهم.

اضطُرّ الأستاذ فتح الله -وهو مَن يقف وما يزال وراء الخِدمة يومَ أن بدأت على هذه الشاكلة- إلى الاحتكاك بمن يتربَّصون به ويثيرون الزوابع من حوله، وكان منهم أن أرسلوا خِطابًا فيه ما فيه من تحقير لقاضيةٍ كانت تنظر في دعوى ضدّه في أدرنه، محاكِين توقيعه؛ فتحرّت النيابة عنه، إلا أن وكيل النيابة أدرك بعد التحرّي أنها مكيدة مُلفّقة، فبرَّأ ساحتَه.

وبينما الأستاذ يُمنَى بمثل هذه المكائد أخذ بعض الإداريين في سكن الطلاب يثير المشكلات أيضًا؛ فقد كان في صلته العميقة بالطلاب وتأثير وعظه فيهم ما يثير حفيظة بعض الإداريين في السّكن والوقف، كان هو المعرفة إلا أنهم أرادوا له أن يكون نكرة؛ فبذلوا قصارى جهدهم ليقصوه عن عمله؛ ويقتضب الأستاذ فتح الله وصفَه لهذه الفترة الحرجة بقوله: "برَّح بي الألم حتَّى لَكأني ألعَق الصَّبِرَ"، فتجشّم الصبْرَ على صُنَّاع المشكلات، فلما بلغ السيل الزُّبى اضطُرّ أن يغادر كوخَه الخشبيّ بعد خمس سنوات أمضاها فيه، فترك هذا الرحيلُ آثارًا كبيرة في عالمه الداخليّ، وكان قد تعلقَ بهذا المكان فتجلَّى تعلُّقه به في كلامه عن كستانه بزاري إذ يقول: "كان سكَن الطلاب في كستانه بزاري كلَّ شيء في حياتي، ولم يخطر على بالي أنني سأرحل عنه يومًا ما، حتَّى إنني تمنّيتُ أن يكون أحد

أركانه قبرًا لي، فمرادي الأول والأخير أن أُدفن في كستانه بزاري، لأسمع أصوات الطلاب من قبري؛ نعم، فهذا هو كل ما أتمنى وأطلب من الدنيا؛ لذا رفضت دون أدنى تفكير ما عرَضه عليّ رجال الأحزاب بعزمٍ وإصرار من منصب رفيع".

"كانت حدَّة الأزمات في كستانه بزاري تزداد يومًا بعد يوم دون توقف، فاتخذت منزلًا في حيّ "كُوزَلْ يالي"، وفي ليلةٍ ليلاء جمعت أمتعتي وحملتها في العربة، وساعدني الطلاب في ذلك، رحلت عن كستانه بزاري وعيناي تفيضان من الدمع، وقلبي يتلظّى بلوعة الفراق، فلربما برَّح بي الشوق إلى كوخي الخشبي الذي أَنِسْتُ به سنين عددًا، ويكأنّي فقدْتُ شيئًا من جسمي بعد أن أَلِفتُ كوخي وكستانه بزاري، ناهيك عن طلابي الذين نزلوا مني منزلة الرّوح من الجسد...

وأنَّى لي أن أنسى تيكم الأيام، أو كوخي الخشبي، وقد أفضيتُ بأقدس أسرار روحي إليه؟ لا أظنّ أنّني سأنساه، وكيف أنساه أو أنسى طلابي الذين يتراءى لي خيالهم في كلّ شيء، ففي لحظات الوداع كانت أعينهم تفيض من الدمع حزنًا، وكأنّي بنظراتهم البريئة تتوسل وتستغيث: لمن تتركنا؟ آهٍ آهْ... ليتني أقدر أن آخذهم معي جميعًا؛ إلا أنّ ذلك لم يكن في وسعي يومئذ".

"كأنّ عجلة الزمان لا تدور، فالثواني باتت سنين، أمَّا الأيام التي قضيتها مع طلابي فأكاد أتخطّى فيها الزمن وكأنني أسابقه، فما أقوم به وما ينبغي لي أن أفعله يضيق به الليل والنهار، فالواجبات أكثر من الأوقات، أي هل لمثل هذا الوقت الضيّق أن يستوعب هذا الكمّ من العمل الذي يتطلَّب أكثر من أربعة وعشرين ساعة في اليوم؟"

خلَّـف الرحيـل عن كسـتانه بـزاري حزنًا هائـلًا، فهذا المـكان ليس كغيره، فكم وكم من الخِدمات شـعّ نورها منه.

فـي هـذه الفتـرة لمعت فـي الأفق فكرة إصـدار جريـدة، فأصدر هو وصالـح أُوزْجان جريدة أسبوعيّة اسمها "الاتّحاد"، وحظي صدورها بتأييد السيد زبير كُونْدُزْ آلْب، وسرعان ما استفحل الخلاف حول الجريدة، فإذا بهـا بوّابـة خلاف وقد كان يُرجَى لها أن تكون رابطـة لا ممزِّقة، فلما رأى الأسـتاذ فتح الله أنّ الأمور لا تسـير على ما يرام، وأن الجريدة لا يمكنها تحقيق هدفها على هذا النحو، عزف عن المشاركة في فعالياتها.

توديع الأستاذ فتح الله أثناء مغادرته إزمير للحج ١٩٦٨/٢/١٨م

وفي هذه الفترة أيضًا سـافر الأستاذ فتح الله ليحجّ، وكان ثالث ثلاثة أرسـلتهم رئاسـة الشـؤون الدينية مشـرِفين على بَعثة الحجّ عام ١٩٦٨م، فأورثَته تلك الزيارة فضل شوق وشغف بحياة الصحابة لا سيما أنّه ترعرع علـى حبِّهـم، وكان إذا تحـدّث عن محبَّة النبيّ ﷺ يغطّ فـي بكائه غطغطة

القِـدْر، وكانَ هـذا الشـوق هـو رفيقُه في رحلتـه كلِّها، وها هـو ذا يحكي مشـاعر غمرَته فـي أول وهلة رأى فيهـا الكعبة والروضـة المطهّرة يقول: لمـا رأيـت الكعبة والروضة المطهّـرة لأوَّل وهلة إذا بي فـي حالة روحية لا تُوصَف، ولو فتّحت لي أبواب الجنة كلّها حينئذ -وهذا محض خيال- ودعيت إلى دخولها، لعزفت دخول الجنة حتمًا ولرغبتُ في البقاء بجوار الكعبة الشريفة والروضة المطهرة؛ لقد وجدْت في مجاورة الحرم الشريف والروضة المطهرة لذة روحيّة غامرة ومتعة ليس لها نظير...

تذكَّـرْتُ طلابـي لا سـيما طلاب كسـتانه بزاري، فلهـم عندي مكانة متميـزة، فأعددْتُ قائمة بأسـمائهم، وأحضرتُها معـي إلى الحج، فدعوت لهم فردًا فردًا، عِلاوة على أنني دعوت لآخرين أعرفهم بأسمائهم".

من ذِكريات أيام كسـتانه بزاري التي لا يتأتّى نسيانها المخيماتُ التي أطلَّت ببشائر جيل جديد؛ وهي مخيمات صيفية أنشئت في "بُوجا" بإزْمير عند قرية "قَايْنَاقْلَار" في عرين أشـجار الصنوبر بين الحقول؛ أُنشئت لتربية الطـلاب وتهذيبهـم، وتعليمهـم كيـف ينبغي أن يسـتثمروا وقتهم بشـكل صحيـح، فكانت مكانًا مناسـبًا للمخيـم، فالمكان يمتاز بالهـدوء والهواء الطَّلْق على ما فيه من مشقة في تحصيل مستلزمات الحياة.

ويُعـرِب الأسـتاذ فتح الله عن أهداف المخيم قائـلًا: "يهدف المخيم إلى استغلال الطلاب لعطلة الصيف في هذه المخيمات، كيلا يذهبوا إلى قريتهم أو بلدتهم فينقطعوا عن طلب العلم، ومن أهدافه أن تنتظم عقولهم وقلوبهـم وأرواحهـم، وأن يتعمقوا في العلوم الشـرعية"، ولهذه الكلمات إشـارات دالّة تفسِـر تأثّر من كانوا معه بأفكاره حينئذ. ويذكر الأسـتاذ أن الأيام التي قضوها في المخيمات تركت أثرًا عميقًا في الذين حضروها.

في السنة الأولى ضمّ المخيم ٥٠-٦٠ طالبًا، وفي السنة الثانية والثالثة ناهز عددهم الألف، فصاروا يتناوبون بعدئذ على المخيم، تراوحت أعمار من التحق بالمخيم في السنة الأولى بين ١٣-١٤ عامًا، ثم التَحق به طلاب الجامعة في الأعوام التالية.

لم تكن المخيمات مألوفة في هذه الفترة، فلم تجد كثيرًا من المؤيدين، فمن الناس من تردد في تعليم الشباب بهذه الطريقة؛ فواجه الأستاذ فتح الله عقبات عدّة في هذا الصدد، منها محاولته توفير مصروفات المخيم من ناحية، وتطبيق النظام والالتزام به في الحياة اليومية بالمخيم من ناحية أخرى، وتصدِّيه لصعوبات المكان الذي نُصِب فيه المخيم، يقول: "كان المخيم الأول كئيبًا بعض الشيء؛ فأنا المسؤول عن كلّ شيء، مِن نصب الخيمة إلى تجهيز الطعام، ولو فسد شيء من هذا فعليّ أن أصلحه، وكثيرًا ما كانت مضخة البئر تتعطل، فأصلحها بنفسي في كلّ مرّة؛ ولم تتوفر الكهرباء في العام الأول، وحصلنا في العام التالي على مولِّد كهربائي صغير بلغت قوّته ثلاث كيلو وات، وكثيرًا ما كان يتعطل المولّد أيضًا، وتصليحه عليّ طبعًا...

وكلما ازداد عدد الطلاب تضاعفت المشقة، ففي السنة الثالثة خاصّة حلَّت بالمخيم أزمة كبيرة في المياه، كنت أحمل المياه بعربة من الآبار من مسافة بعيدة في تلك المنطقة، فكنت السائق والساقي والمدرِّس، في الحقيقة إن توفير الطاقة لكل ذلك كان أمرًا شاقًّا لأبعد حد، لكنني كنت أحاول جاهدًا.

كان المولِّد الكهربائي قديمًا جدًّا، كنت أضطر كلّ يوم إلى فكِّه وإصلاحه، وَيْكأنّي أصبحت مهندس مولِّدات كهربائية! وأحيانًا كان

لا بـدّ مـن حفـر البئـر قليـلًا، فأحفـره بالمجرفـة بمسـاعدة الأصدقـاء، ثم تعاضدْنا لنبني الحمّامات، ففعلنا، بل حفرنا لها الصرف الصحي أيضًا.

وإنمـا أذكـر هـذه الأعبـاء لأننـي أرى فيهـا أجمل لحظـات حياتي، لا لأحكي عن مكابدات قاسيتُها يومئذ".

وتفاقمـت المشـكلات حيـن تخلّي أمنـاء الوقف في كسـتانه بزاري عن مساعداتهم كليًّا للمخيم لا سيما المخيم الثالث.

وضـاق بعض الناس ذرْعًـا بزيادة عدد المقبلين علـى المخيم، حتى وصل الأمر بهم إلى قطع الطريق على الأستاذ فتح الله وطلابه، بل قاموا بتهديدهم بشكل غير مباشر؛ فطاف الأستاذ فتح الله شهرًا كاملًا في جبال "نِيف" يبحث فيها عن مكان للمخيم، حيث يقول الآن: "أعرف جبال نيف كما أعرف راحة يدي" إلا أنّه لم يجد فيها مكانًا مناسبًا، وخاطر بكلِّ شيء وأنشأ المخيم في نفس المكان.

كان الأسـتاذ فتـح الله يقـوم بأنشـطة المخيـم كلّها، ولا يغـادره بلا ضـرورة، اللهـم إلا يوم الجمعة إذ كان يذهب إلـى إزمير يخطب الجمعة ويلقـي المواعـظ؛ وفـي السـنة الثانيـة أخـذ إجـازة ولـم يغـادر المخيم، أما في السنة الثالثة فكان يغادر المخيم كلّ جمعة فقط ليخطب ويعِظ.

أمَّـا أيّـام المخيمات بأنشـطتها الاجتماعية والرياضيـة الكثيرة عِلاوة علـى مـا فيها مـن دروس تُلهب حماس الطلبـة فيصفها الأسـتاذ فتح الله قائـلًا: "ازدان المخيّـم بالنظـام والأدب والعلـم معًـا؛ فخطونـا بهـذا أول خطـوة نحـو عالـمٍ طالما حلَمْنـا بنَضْرته وصفـاء آفاقه؛ واقـعُ الأمرِ أنَّني لـم أكن أفكّر في مغادرة المخيم والنزول إلى المدينة بلا عذر. نعم، كنت آتـي إزميـر كل جمعة للخطبة والموعظة، وفي السـنة الثانية أخذت إجازة

ولـم أغـادر المخيـم قطّ، أمـا في السـنة الثالثة فلـم أكن لأغـادر المخيم إلا يوم الجمعة للخطبة والموعظة، لم يكن شيء على وجه الأرض يعدل مـذاق التعبّـد بقيـام الليل، وبالتأهّـب لصلاة الفجر علـى وقتها في صيفٍ لياليه كأنَّها الضيف، وبالقراءة حتّى السحر. حاولت أن أنظم بقصيدة -وإن لم تكن بذاك- عن مشاعري تُجاه هذه المخيمات، وليت شِعري هل استطاع شِـعري أن يُعـرِب عن شـعوري؟ لكنني لم آلُ جَهْدًا فـي التعبير عن خبايا ما في سريرتي من شوق ولذّة".

"أيـام المخيمـات" هـذا هـو اسـم القصيدة التي أشـار إليهـا، وكتب الأستاذ مقالة في الموضوع نفسه عنوانها "الزمن في المخيمات".

ومـن الأهميّـة بمكان لمن يـؤرّخ لتلك الحقبة واصطبـغ بمشـاعرها أن يصف لنا في شعره أو مقالته كيف مرَّت تلك الأيّام، وجوهرَ ذاك النشاط المتميز الذي أُعِدّ للشباب في فترةٍ حِيلَ فيها بينهم وبين الروحانيات.

obeikandl.com